



Title	من "فونتمارا" الإيطالية إلى "الأرض" المصرية : قصة الفلاح والسلطة
Author(s)	Elsharqawy, Abdel Rahman Tareq
Citation	アラブ・イスラム研究. 2017, 15, p. 95-140
Version Type	VoR
URL	https://doi.org/10.18910/105980
rights	
Note	

The University of Osaka Institutional Knowledge Archive : OUKA

<https://ir.library.osaka-u.ac.jp/>

The University of Osaka

من "فونتمارا" الإيطالية إلى "الأرض" المصرية: قصة الفلاح والسلطة

عبد الرحمن طارق الشرقاوى*

From the Italian Fontamara to the Egyptian Al-Ard The story of Peasant and Authority

This study aims at examining the relation between the Italian novel Fontamara and the Egyptian one AL-ARD which was once mentioned by Abbas Al-Tonsi in the 1980s. Both novels narrate the story of a village oppressed by the authorities for long time, and they change to rebel. They both have many similar motives as well as clear differences in many points. It is possible to understand the differences based on the time and the method of publishing. Understanding the similarities, on the other hand, requires more effort to see if it is possible to count on the similar circumstances or we should examine the possibility of influence.

The current study tries to discuss the possible influence through studying the early publications of Fontamara and its translations to several languages, including Arabic, then looking into the Arabic translations, their history and the possibility of being read by Al-Sharkawy before writing his novel. After that, comes the presentation of both novels and the comparison.

This study lies inside the boundary of comparative literature and it adopts the general principles of the historical approach and it pays special attention to the role of translation.

١ مقدمة:

تبدو السلطة التي هي القائمة على حسن توزيع الموارد وعلى الارتقاء بحياة البشر في نطاقها، تبدو في كثير من المواقف مصدرا للتوتر والجدال، وتدخل في صراع مع من تقوم على شئونهم لأسباب تتصل بانحيازاتها كما تتصل بطبيعة من تفرض نفوذها عليهم. وعلاقة الفلاح بالأرض والماء قد تكون صورة من صور أزماته وما يتعرض له من أذى وظلم وقهر على يد

* Abdel Rahman Tareq Elsharqawy. Assistant Professor at the Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Cairo University. Specially Appointed Associate Professor at the Graduate School of Language and Culture, Osaka University.

السلطة التي يخضع لها والتي يُفترض فيها أن ترعى مصالحه. وكانت هذه الأزمة وهذا الصراع موضوعاً لعدد من الأعمال على مستوى العالم منها رواية **فونتمارا** للكاتب الإيطالي إنياتسيو سيلوني ورواية **الأرض** للكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي.

تحاول هذه الدراسة أن تنظر في كيفية تقديم الروائيتين لهذا الصراع مع المقارنة بين العاملين لبيان احتمال تأثير العمل الإيطالي الصادر في ثلاثينيات القرن العشرين على العمل المصري الصادر منجماً عام ١٩٥٣ قبل أن تضمه دفناً كتاب واحد بعد ذلك بعام. ولا تدعي هذه الدراسة أنها المقارنة الأولى التي تأتي بين الروائيتين ولا أنها أول إشارة إلى احتمال التأثير؛ فقد سبق أن نشر عباس أحمد ليبب (عباس التونسي) مقالاً في مجلة فصول المصرية عام ١٩٨٢ يعالج هذا الأمر. وكان عباس التونسي قد أنجز بحثه هذا حول منتصف السبعينيات خلال دراسته الجامعية، بما يعني أن الفكرة كانت مطروحة بوضوح منذ السبعينيات. لكن المراجع المتاحة بين أيدينا لا تتضمن أية إشارة أخرى إلى احتمال التأثير هذا، كما أن رواية **فونتمارا** نفسها كانت دوماً عملاً يظهر ثم ما يلبث أن يختفي من أذهان القراء العرب.

ورواية **فونتمارا** للكاتب الإيطالي إنيازيو سيلوني - الذي يشار إلى اسمه في بعض المواضع على أنه إجنازيو سيلوني، أو إنياتسيو سيلونه - هي واحدة من الروايات المهمة في إطار مناقشة هذه العلاقة بين الفلاح والسلطة وتحليلها في الصراع على الماء. كما أن هذه الرواية قد تحمل أهمية أخرى فرعية في تركيزها على علاقة المواطن - الفلاح هنا - بالسلطة الفاشية التي صدرت الرواية في زمان سيطرتها ساعية لإيجاد حل أو مخرج للفلاح ينقذه من برائتها ويحميه من فظائعها. يضاف إلى ذلك أن الرواية تناقش العالم الثنائي والمنفصل الذي يعيش فيه كل طرف من طرفي السلطة والمواطن، والذي يتسم بتحول في الوعي صوب إدراك تغير الزمن وكأنها تعيد سيرة رواية ثيرفانتيس العظيمة "دون كيخوته". فالروايتان توضحان ما يترتب على أن يعيش الفرد في عالم ورأسه مشغول بتفاصيل عالم أقدم حتى إنه لا يستطيع أن يرى واقعه بشكل طبيعي.

وإذا كانت **فونتمارا** قد وضعت الفلاح إزاء السلطة بشكل عام، وأفردت مساحة للتركيز على الفاشية دون تجاهل الأشكال الأخرى من السلطة، فإن الأرض في المقابل قد حصرت نفسها في فترة محددة وركزت على سلطة حزب الشعب وزعيمه المعروف إسماعيل صدقي الذي ترأس الوزارة في مصر مطلع الثلاثينيات، وذلك على نحو يوحي أنه نموذج الظلم الأول والطامع في أرض الفلاحين ومائهم، وكأن السلطات السابقة عليه لم تمارس نفس الدور.

تحمل **فونتمارا** في ترجماتها العربية التي يشار إليها هنا - والأقدم منها على وجه الخصوص - أهمية أخرى لما قد يمكن أن يكشف عنه رصد هذه الترجمة بالتحديد من تأثير **فونتمارا** على الرواية العربية. ومن المعروف أن هذه الرواية مترجمة إلى اللغة العربية أكثر من مرة، وإن

لم يكن ذلك معروفا لوقت طويل. كما أن أعمالا أخرى للمؤلف الإيطالي سيلوني قد تُرجمت إلى العربية.

٢ سيلوني:

أما المؤلف فهو إينازيو سيلوني، واسمه الحقيقي هو سيكوندينو ترانكيللي Secondino Tranquilli. وهو مؤلف إيطالي معروف إلى حد ما، ولأسباب مختلفة. ويمكن الاستدلال على شهرته من خلال كثرة أعماله المنشورة التي قد تعني أنه مؤلف ناجح وله جمهور يقرأ كتبه. وكذلك يمكننا أن نلاحظ ترجمة أعماله إلى لغات مختلفة حتى إنها وصلت إلى العربية أكثر من مرة ومع أكثر من عمل. إضافة إلى ذلك فقد تحولت فونتمارا إلى فيلم سينمائي. وقد صدرت ترجمة رواية فونتمارا إلى العربية بعد سنوات قليلة من صدور الكتاب لأول مرة. كما أن مترجم الرواية للمرة الثالثة يشير إلى عدد من أعماله وما أثاره من مناقشات، وقد خص بالذكر روايته "الثعلب وزهور الكاميليا": "...". وقد أثار المؤلف الأخير اهتمام الأوساط الأدبية في العالم كله. وعلق عليه الكثيرون من النقاد في الجمهورية العربية المتحدة "...". (١)

وُلد سيلوني في مطلع القرن العشرين وعاش تجربة مأساوية على المستويين العام والخاص، إذ فقد معظم عائلته نتيجة لكارثة طبيعية في سن مبكرة من حياته. ولم يبق له إلا أخ واحد، لكنه فقدته في وقت لاحق نتيجة ظلم السلطة وبتطشها. وقد كان منذ طفولته شاهدا على الحياة البائسة للمواطن الإيطالي العادي وعلى ما يتعرض له من بطش وظلم وقمع يصل إلى حد القتل. كما كان شاهدا للطموح الإيطالي الاستعماري إن كان قد سمع به في طفولته وفي إقليمه البعيد الذي عاش فيه حيث لا يسمع الناس بالحروب ولا يعرفون أسبابها وإنما يقاسون ويلاتها.

بدأ سيلوني منذ فترة مبكرة من حياته نشاطا سياسيا يساريا مع انضمامه لتيار يساري انفصل عن الحزب الاشتراكي وبدأ في تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي. وكان سيلوني منذ العشرينيات مقربا من جرامشي ومسئولا عن الدعاية للحزب الجديد. وقد شهدت إيطاليا مع صعود الفاشية في العشرينيات تحولا في النشاط السياسي لكثير من الأحزاب ومنها الحزب الشيوعي دفع الكثيرين إلى التحول إلى العمل السري أو قبول السجن لفترات طويلة. وكان نصيب سيلوني الفرار إلى سويسرا هربا من مواقفه التي جلبت له عداء النظام وعداء الرفاق في الحزب بعد أن عارض السياسات الاستالينية مما أدى إلى فصله من الحزب.

(١) حسن محمود: مقدمة فونتمارا ضمن سلسلة الألف كتاب. العدد ٥٩٣.

عاش سيلوني في سويسرا منذ فر إليها في نهاية العشرينيات حتى عاد إلى إيطاليا عام ١٩٤٤ بعد خروج إيطاليا من الحرب العالمية وبعد أن بالمشاركة في تنظيم العمل السري ضد الفاشية.

حامت شبهات حول سيلوني وعلاقته بالفاشيين وبالأمريكيين في فترات مختلفة من حياته. فثمة كتابات ظهرت في نهاية القرن العشرين تثبت أن سيلوني كان يعمل مخبراً سرياً لحساب الشرطة زمن الحكم الفاشي، وأنه كان يدلي بمعلومات عن زملائه.^(٢) كما قيل إن الجريدة التي كان يحررها في الستينيات قد حصلت على تمويل سري من المخابرات المركزية الأمريكية مما حدا به إلى الاستقالة منها. وتلك الشبهة الأخيرة تذكرنا بما أثير حول علاقة مشابهة للمخابرات المركزية الأمريكية مع مجلة شعر في العالم العربي في نفس الفترة تقريباً.

كتب سيلوني عددًا غير قليل من الأعمال منها ثلاثية روائية، كما كتب كتبًا سياسية وصحفية. وقد تُرجمت أعماله منذ وقت مبكر من حياته، فروايتيه *فونتمارا* مثلًا تُرجمت خلال السنوات الأولى إلى عدة لغات أولها الألمانية ثم الإنجليزية بين ١٩٣٣ و ١٩٣٤. وقام الجيش الأمريكي بطباعة روايتيه *فونتمارا والخبز والنبذ* بشكل غير رسمي وقام بتوزيع العاملين في إيطاليا في زمن الحرب. وتحولت *فونتمارا* إلى فيلم سينمائي عام ١٩٧٧ من إخراج المخرج الإيطالي كارلو ليتزاني. وكل ذلك يدل على أنه كاتب معروف منذ زمن مبكر ولفترة طويلة.

يرى القارئ لأعمال سيلوني قدرًا غير قليل من الريبة والشك يتسم بهما الفرد في نظرتهم إلى الآخرين من حوله وخصوصاً الغرباء الذين يمرون به. بل إن هذا الفرد عندما يفرضي بسر إلى شخص آخر فإنه يظل مرتاباً في ذلك الآخر. ولا شك أن هذا مرتبط بالفترة التي عاش فيها سيلوني. كما أن أعمال سيلوني تحمل كثيراً من أفكاره ولكنها لا تسعى إلى أن تكون بوقاً مباشراً لمعتقداته السياسية التي يمكن أن نفهمها من خلال أعماله. وهذا ما يؤكد عليه مترجمه الأول مصطفى كامل منيب، وهذا ما يمكن أن يراه القارئ لأعمال سيلوني. وإذا كان سيلوني لا يستهدف من كتابته أن يدعو لمذهبه الفكري أو لعقيدته السياسية فإنه يطمح إلى شيء آخر وهو أن يكون أدبه ساعياً لإيجاد حلول لمشكلات الإنسان في عصره. وكان هذا هو ما نادى به سيلوني والتزم به.^(٣) ويمكن أن نرى هذه الريبة وهذا الامتناع عن الدعايا واضحاً في نهاية *فونتمارا* من خلال إشارة الراوي الشاب إلى حوار بين شخصيتين عن روسيا لكنه لم يسمع ما قيل جيداً.

(٢) Dario Biocca - Mauro Canali, *L'informatore: Silone, i comunisti e la polizia* (Luni Editrice, Milano, Trento, 2000) وانظر أيضاً: The Guardian, Wednesday 5 April 2000.

(٣) مقدمة فونتمارا، ترجمة مصطفى كامل منيب، ص: ٦.

وقد أضاف إدوار الخراط بعدًا آخر إلى سيلوني الكاتب الفرد عندما ضمه إلى جيل من الكتاب والمفكرين في حقبة بعينها وهذا هو جيل الكتاب الثوريين الذين يمكن تصنيف سيلوني بينهم. وقد رأى الخراط أنهم تعرضوا لإحباط كبير بعد الحرب العالمية الأولى مع استمرار سيطرة أنظمة قمعية ديكتاتورية على حياة الناس الذين ينتمون لهم. يقول الخراط: "وسيلوني من أول ممثلي تلك الحقبة من المفكرين الثوريين الذين حبطت آمالهم في الربع الثاني من هذا القرن (يقصد القرن العشرين)، وتبين لهم أن أزمة الإنسان المعاصر ما زالت ممتدة عميقة متغلغلة الجذور. وتنصب عنايته في أعماله الفنية على علاقة الثوري بالرجل العادي في حياته الشاقة المكبوتة...".^(٤)

إن صورة المفكر الثوري والأديب الثوري هنا هي جماع أمور عدة: أول هذه الأمور سيرة حياة سيلوني نفسه وموقفه من السلطة الذي انتهى به إلى الفرار من بطشها واللجوء إلى مكان بعيد عن نفوذها وإن كان غير بعيد عنها جغرافيا. وثانيها هي كتابات سيلوني التي تظهر فيها هذه الطبيعة الثورية وإن على نحو غير مباشر، فهو لا يدعو للثورة مباشرة وإنما يضع أمام قارئه المشكلة ويستبعد الحلول الواحد تلو الآخر ليصل بالقارئ إلى السؤال المهم وهو: ما الذي نفعله؟ "فما الذي نفعله؟" هذا السؤال هو الذي ينهي به روايته **فونتمارا**. وثالثها خاص بالأدب العربي في منتصف القرن العشرين عندما انشغل العرب بثوراتهم التي امتدت لتبحث عن مثيلاتها في البلاد الأخرى.

٣ طبعات فونتمارا وترجماتها:

صدرت رواية **فونتمارا** للمرة الأولى عام ١٩٣٣، ولكنها لم تصدر في إيطاليا ولا باللغة الإيطالية، إنما صدرت بترجمة ألمانية لأول مرة.^(٥) ثم صدرت بعدة لغات قبل أن تصدر باللغة الإيطالية في العقد التالي. وكانت الطبعات الإيطالية التي صدرت في البداية هي طبعات غير قانونية قامت بها قوات الحلفاء لتصل إلى الإيطاليين داخل إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية أو ليتم توزيعها على الأسرى الإيطاليين في معسكرات اعتقالهم. قام بالنشر في الحالة الأولى الجيش الأمريكي وفي الحالة الثانية الجيش البريطاني. ولم تصدر طبعة إيطالية رسمية إلا بعد عودة سيلوني إلى إيطاليا عام ١٩٤٤. وقد صدرت عدة طبعات إيطالية قام المؤلف نفسه بتعديل الرواية مع كل مرة منها. صدرت طبعات معدلة للرواية أعوام ١٩٤٥ و ١٩٤٧ و ١٩٥٣. وكانت أول ترجمة إنجليزية للرواية قد صدرت عام ١٩٣٤ عن دار نشر "بنجوين".^(٦) وأعيدت طباعة الترجمة الإنجليزية

(٤) تقديم إدوار الخراط لسيلوني ضمن كتابه: شهر العسل المر وقصص إيطالية مختارة. ص: ٤.

(٥) Silone, Ignazio (1933), *Fontamara*, Roman (Zurich: Oprecht & Hebling).

(٦) Silone, Ignazio (1934), *Fontamara*. Penguin Books Ltd.

عن نفس الدار ليتم توزيعها على أسرى الحرب مع معلومات وإرشادات من كتاب الأسرى وذلك على غلاف الكتاب وغلافه الخلفي. وكان من سعة انتشار الرواية أن صدرت لها ترجمة بلغة "اسبيرانتو" وذلك عام ١٩٣٩ في هولندا.^(٧)

فإذا ما انتقلنا إلى الترجمات العربية، وجدنا أن أول ترجمة للرواية كانت عام ١٩٤١. وقام بها مصطفى كامل منيب وهو الموصوف على غلاف الكتاب بأنه محام. أما الناشر فاسمه "دار النشر" ومقره بشارع إبراهيم باشا بمصر. أما الترجمة الثانية فكانت عام ١٩٦٣ وقام بها عيسى الناعوري الذي تربطه بسيلوني معرفة شخصية وزيارات ودية حسبما يشير الناعوري نفسه. وكانت الترجمة الثالثة عام ١٩٦٧، وقام بها كامل صليب وراجعها حسن محمود وصدرت ضمن سلسلة الألف كتاب في العدد ٥٩٣. وإذا ما نظرنا إلى مقدمة الترجمة الثالثة اكتشفنا أن المترجم لم يشير إلى الترجمة الأولى التي صدرت قبل خمسة وعشرين عاماً، ولا إلى الترجمة الثانية التي صدرت في بيروت قبل أربع سنوات عن دار الطليعة. وقد جاءت مقدمة الترجمة العربية الثالثة في صفحة ونصف تقريبا وتضمنت فقرة عن الكتاب وأخرى عن الكاتب ثم تفصيلاً عن عمله **الثعلب وزهور الكاميليا** وأوضحت المقدمة أن "... المؤلف الأخير أثار اهتمام الأوساط الأدبية في العالم كله. وعلق عليه الكثيرون من النقاد في الجمهورية العربية المتحدة...".^(٨)

إن نظرة سريعة على اسم المؤلف في الترجمات الثلاث وفي غيرها كفيلة بأن تكشف لنا مصدر كل ترجمة وطبيعة معرفة المترجم بطريقة نطق اسم المؤلف في اللغة الإيطالية. ففي الترجمة الأولى وفي مواضع أخرى كثيرة نرى الاسم الأول مكتوباً وبه حرف (ج) وهي موجودة في الهجاء اللاتيني للاسم لكنها لا تُنطق. ولهذا فيكون من الأرجح أن مصطفى كامل منيب قام بالترجمة عن لغة غير الإيطالية. ويتحول الاحتمال إلى ما يشبه اليقين عندما نرى أن ما جاء على الغلاف الخلفي والصفحة الأخيرة من الترجمة الأولى يمثل ترجمة للغلافين الأمامي والخلفي لطبعة بنجوين الإنجليزية. أما اسم سيلوني في الترجمتين التاليتين فقد ظهر في ترجمة الناعوري على النحو التالي: "أنياتسيو سيلونه" وفق النطق الإيطالي الصحيح للاسم، وفي ترجمة كامل صليب ظهر الاسم على النحو التالي: "أنياتسيو سيلوني".

من اللافت للنظر أن ترجمة الناعوري لم تشر إلى ترجمة منيب على الإطلاق ولم يذكر الناعوري شيئاً عن الترجمة الأولى في كتاباته التالية التي حكى فيها عن لقائه بالمؤلف الإيطالي أكثر من مرة. فقد جاء ذكر سيلوني في كتاب الناعوري "رحلة إلى

(٧) Carlo Minnaja ed. (2007), *L'esperanto in Italia. Alla ricerca della democrazia linguistica*, Il Poligrafo (90 - 91).

(٨) إنياتسيو سيلوني، فوتنمارا، ترجمة كامل صليب، مراجعة حسن محمود. سلسلة الألف كتاب، العدد ٥٩٣ (القاهرة، مكتبة يوليو، ١٩٦٧).

إيطاليا" الذي صدر في مرحلة لاحقة من حياته وأعيد طبعه عام ٢٠٠٤. وفي هذا الكتاب يحكي الناعوري عن معرفته بالمؤلف. وليس هناك ذكر لمعرفة سيلونه أو الناعوري بترجمة مصطفى كامل منيب. وقد حكى الناعوري أنه طلب تصريحاً من سيلونه له بترجمة **فونتمارا** وحصل على التصريح شفويا في أكتوبر عام ١٩٦١ وبدأ الترجمة في أول نوفمبر وانتهى منها في منتصف ديسمبر من نفس العام، ثم أرسل الترجمة إلى دار الطليعة في بيروت لنشرها بناء على طلب من سلمى الخضراء الجيوسي التي كانت حاضرة في لقاء سيلونه مع الناعوري عندما حصل على التصريح. وصدرت الترجمة في دار الطليعة في بيروت عام ١٩٦٣ بعد الحصول على إذن رسمي من المؤلف.^(٩) كما أن ترجمة كامل صليب لم تشر إلى الترجمتين السابقتين. وللمرة الثالثة - بعد الخراط والناعوري - يغيب ذكر الترجمة الأولى التي قام بها مصطفى كامل منيب عام ١٩٤١.

اختفى اسم سيلوني مرة أخرى عن الساحة الأدبية العربية ولم يظهر إلا في ندوات أدبية محدودة وأبحاث دراسية كان أبرزها ما قدمه عباس أحمد ليبب (عباس التونسي) ضمن أبحاث الدراسة في آداب القاهرة، وتم نشره لاحقا في مجلة فصول الدورية الصادرة في القاهرة عام ١٩٨٢. ثم عاد اسم سيلوني للاختفاء مرة أخرى ليظهر بصورة محدودة في كتابات لم تكن كافية لتحقيق الانتشار له ولرواياته المختلفة ومنها **فونتمارا**.^(١٠) وربما يمكن أن نفهم اختفاء اسم سيلوني عربياً في نهاية الستينيات فقد حصل على جائزة في عام ١٩٦٩ من دولة إسرائيل واسم الجائزة The Jerusalem Prize. وهي جائزة تمنح للكتاب الذين يتعاملون مع الحرية الفردية والمجتمع. ولا شك أن حصوله على هذه الجائزة كان سبباً لتجاهل اسمه نتيجة للغضب أو الحرج. لكن اختفاء ذكره وذكر **فونتمارا** منذ نهاية ١٩٤١ عندما صدرت الترجمة الأولى لم يكن مبرراً، خصوصا أن الرواية كانت تُوزع على سبيل الهدية لمن يشترك لمدة سنة في مجلة "المجلة" الشهيرة آنذاك. ولم يختف ذكر سيلوني فقط، وإنما اختفى ذكر مصطفى كامل منيب أيضا. وعند عودة اسم سيلوني إلى الظهور مع ترجمة إدوار الخراط لقصته "عودة إلى فونتمارا" ضمن كتاب "شهر العسل المر" فإن ذكر مصطفى كامل منيب والترجمة العربية الأولى قد غابا. تكرر هذا مرة ثانية وثالثة ورابعة. ولم يعد ذكر الترجمة الأولى إلى الظهور حتى سبعينيات القرن العشرين، خلال مناقشات غير مدونة في الدراسات العليا بكلية الآداب

(٩) أنياتسيو سيلونه: فونتمارا، ترجمة عيسى الناعوري (بيروت، دار الطليعة ١٩٦٣). أما قصة اللقاء بين المؤلف والمترجم واتفاقهما على الترجمة ونشر الكتاب فهي ضمن كتاب: عيسى الناعوري: رحلة إلى إيطاليا ١٩٦٠ - ١٩٦١، حررها وقدم لها تيسير نجار (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر). ص: ١٨١ - ١٨٤.

(١٠) عباس أحمد ليبب (عباس التونسي): بين الأرض وفونتمارا. (القاهرة). مجلة فصول. المجلد الثاني. العدد الثاني. يناير، فبراير، مارس، ١٩٨٢. ص: ٢٣٩ - ٢٥٣.

جامعة القاهرة، وبالتالي في المقال المنشور في مجلة فصول عام ١٩٨٢. لكن الترجمة الأولى تكتسب أهمية كبيرة إذا ما كنا بصدد الحديث عن تأثير مُحتمَل على ورواية الأرض الشهيرة للمؤلف المصري عبد الرحمن الشرقاوي التي صدرت عام ١٩٥٣. فإذا كنا سنفترض أن الرواية الثانية تأثرت بالأولى، فلا بد أن يكون هذا قد تم عبر الترجمة الأولى أو عبر ترجمة إلى لغة أخرى غير العربية صدرت ووصلت إلى مصر قبل كتابة رواية الأرض. وليس معروفاً عن الشرقاوي معرفته باللغة الإيطالية لنفترض أنه قرأ فونتمارا بلغتها الأصلية التي صدرت بها في تاريخ لاحق. ومن المهم هنا الإشارة إلى أن هذا الزعم ليس جديداً وإنما سبق أن ذكره عباس أحمد ليب (عباس التونسي) عام ١٩٨٢. وليس لدينا معلومات جديدة تثبت الصلة التاريخية هنا غير ما أشار إليه هو من أن الشرقاوي كان على صلة مباشرة بمصطفى كامل منيب من خلال "لجنة نشر الثقافة الحديثة" وكان الدليل على ذلك مأخوذاً من كتاب رفعت السعيد "تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ - ١٩٥٠".

سوف نحاول هنا أن ندخل إلى حبكة الروايتين وعناصرهما بغرض بيان ما بينهما من تشابه يرجح الصلة بينهما أو ينفىها. ولتحقيق هذا الغرض سنبدأ بعرض مطول نسبياً لرواية فونتمارا لعدم معرفة القارئ العربي بها، ثم نرصد نقاط التشابه والتباين والاختلاف بينها وبين رواية الأرض التي نفترض معرفة القارئ بها، بما يجعلنا نعرض لها بقدر أقل من حيث المساحة وبتركيز يتفق مع غرضنا من عرضها.

٤ فونتمارا:

تحكي فونتمارا قصة قرية مُتخيلة في جنوب إيطاليا، ابتكرها سيلوني لتمثل واقع الريف ومعاناته "في ذلك الجزء من العالم" ومعاناة الريف عموماً. ولا يرويه راوٍ واحد وإنما أربع رواة، ثلاثة منهم من أسرة واحدة من أسر القرية لا نعرف لأي منهم اسماً. يقوم كل فرد منهم برواية ما حضره منها. إنها شهادة على واقع الريف يقدمها زوج وزوجة وابنه خلال وقت قصير بعد نزوحهم من القرية أو لِنَقْل فرارهم منها. وتركز الرواية على ما مر بالقرية من أحداث خلال صيف أحد الأعوام، لكن الرواة الأربعة وغيرهم يعودون لاسترجاع تفاصيل أخرى شارحة لخلفيات الشخصيات والأحداث. تبدأ الرواية مع الراوي الأول وهو الزوج الذي يحكي عن انقطاع الكهرباء عن قرية فونتمارا في بداية يونيو. ولم يكثر السكان أول الأمر، بل إن النساء والأطفال لم يلاحظوا أصلاً وإنما لاحظ الرجال العائدون من العمل هذا الانقطاع "... وهذه أنوار القرى الأخرى تتلألأ ولكن فونتمارا ما زالت باقية في الظلام. وقد أخذت تغيب وتضيع

حتى ليصعب عليك تمييزها دون الأشجار والغابات وأكواخ السباح وروث البهائم.^(١١) أما السبب في انقطاع الكهرباء فراجع إلى أن السكان لم يدفعوا ولم يكثرثوا لدفع مقابل استهلاكهم من الكهرباء بل واستهدفوا المحصل وكادوا يقتلونه. وهذا دأب أهل فونتمارا الذين يغضبون عند مطالبتهم بالدفع للدولة أو للخدمات العامة. فهم لا يرون الدولة تخدمهم وإنما هي تُحصّل منهم طوال الوقت.^(١٢) ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ الوصف الواقعي جدا لموقع فونتمارا بين عناصر البيئة المختلفة ومنها أكواخ السباح. إن الرواة يتحدثون عن حياتهم كما هي بلا أدنى قدر من التجميل أو الرومانسية.

يتجمع العائدون من العمل أمام حانة تملكها ماريا سوركانيرا التي تمثل مركز التجمع واللقاء على غرار دكان الشيخ يوسف البقال أو مصطبة محمد أبو سويلم في رواية الأرض. ومع تجمع الفلاحين العائدين بعد يوم العمل الشاق في أراضيهم الصغيرة أو في مزارع أخرى يعملون فيها بشكل مؤقت لتحسين دخلهم، يظهر رجل من أهل المدينة قادم على دراجة وهو غير معروف حتى ذلك الوقت لأهل القرية. إن أهل القرية يرتابون في أمر هذا الرجل ويظنون أنه جاء ليفرض عليهم ضريبة جديدة، "... وعلى الرغم من كلامه بأجمعه، فلقد كنا واثقين من أنها ضريبة جديدة سوف تفرض" [فونتمارا ١٩]. المشكلة فقط هي أن يعرف أهل القرية ذلك الشيء الذي بقي لم تفرض السلطة عليه ضريبة. لكن هذا الرجل يخبرهم أن السلطات أرسلته ليجمع توقعات أهل القرية على عريضة سيرسلونها إلى الحكومة المركزية. لكن العريضة ليست معه وإنما معه أوراق بيضاء يريد أن يجمع التوقعات عليها. وقد جمع التوقعات حتى دون أن يخبرهم بمحتواها. ولنلاحظ هنا أن السلطة هي التي تحدد الشعارات التي سيرددها الفلاحون والعراض التي يوقعون عليها، أما الفلاحون فليس عليهم إلا الامتثال. هذا ما نراه مثلا في العريضة المشار إليها هنا والتي ستمثل محورا للأحداث والكوارث التي ستنزل بالقرية بعد قليل. كما نجد أمثلة أخرى في الفصل الثاني مثلا عندما يقترح "مثل الجماهير" إرسال برقية إلى الحكومة نصها: "السلطات والجماهير متحدون في عقد أخوي، مسرورون ويهتفون لتعيين البودستا الجديد" [فونتمارا ٥٦]. وهذا البودستا هو من سيتولى أمر تدمير

(١١) سيلوني: فونتمارا، ترجمة مصطفى كامل منيب (القاهرة: دار النشر، ١٩٤١). ص ١٣. ونظراً لكثرة الاقتباسات التي سترد من هذا المصدر فسوف نشير إليه في المتن بعد هذا الموضع بين [].

(١٢) وردت إشارات كثيرة لما تقوم به السلطة من فرض ضرائب وضرائب أخرى ومزيد من الضرائب دون أن تخدم مصالح الفلاح. وهذا ما يدور في حديث الفلاحين معاً باستمرار: "... وقد انصب الحديث على النور الكهربائي والضرائب - الضرائب الجديدة والضرائب القديمة وضرائب المنطقة وضرائب المقاطعة، مرددين تلك الأشياء القديمة عينها التي قلناها مئات المرات من قبل ذلك..." [فونتمارا ١٤]. ويتردد نفس الحديث في نهاية الرواية ضمن ما قاله براردو يقول للرجل الغامض إن الفلاحين مثل الديدان التي يفرسها ويدوس عليها أهل المدن باستغلالهم حتى لو كانوا أصدقاء الفلاحين. أما أهل المدن فيكسبون كثيرا حتى من ضرب الآخرين ويعيشون جيدا ويأكلون جيدا ولا يدفعون ما يدفعه الفلاح من الضرائب. وطبعا لو كان الضرب يكفي لربح الفلاحون كثيرا من معاركهم. [فونتمارا ٢٣٢].

فونتمارا بسرقة مائها وتبوير أرضها، قبل أن يغتصب رجاله نساءها ويقتلوا رجالها. كما نجد أمثلة متعددة للهتافات والشعارات التي ردها الفلاحون من مناطق مختلفة في خلال تجمع حاشد في مدينة "أفيزانو" وهذا ما يتناوله الفصل الخامس من الرواية.

يختلف هذا عن العريضة التي كتبها أهل القرية في الأرض ليطالبوا فيها من الحكومة في القاهرة التراجع عن قرار إنقاص دورة الري. لقد تداول أهل القرية جيداً قبل أن يرفض البك الذي وسطوه في الأمر صيغة العريضة ويكتب واحدة جديدة يوهم الناس أنها عن نفس الأمر ثم يتضح خلاف ذلك.

لم يتحمس أهل فونتمارا في البداية للتوقيع على العريضة التي لم يروها ولا يعرفون محتواها، وليس سبب امتناعهم عن التوقيع أنهم لا يعرفون محتوى العريضة وإنما معرفتهم بأن السلطات لا تأتيتهم بالخير ولا تمنحهم وإنما تسلبهم مالهم وحقوقهم. ورغم انصراف معظم الفلاحين إلا أن الوافد إلى القرية - وهو "هون بلينو" - يضغط على الباقين منهم حتى يوقعوا ثم يضيف أسماء باقي السكان.

إن سكان فونتمارا لا يجدون بينهم وبين أهل المدينة صلة حقيقية حتى داخل الوطن الواحد. فالراوي الأول - وهو الزوج - يشير إلى أن الحوار بين الفلاحين وأهل المدن مستحيل حتى مع نفس اللغة، في مقابل إمكان الحوار بين الفلاحين من جنسيات مختلفة وبلدان مختلفة: "إنك تتكلم ونحن لا نفهم كلانا الآخر. نحن نتكلم عین اللغة، ولكن لا نتكلم نفس اللغة" [فونتمارا ١٩]. ويقارن الراوي هذا الموقف بضده؛ فقد كان قادراً على التواصل مع فلاحين يتحدثون لغات أخرى في أمريكا اللاتينية. ويتكرر هذا الموقف مراراً في الرواية خصوصاً في حديث شيركو ستانزا - المحامي المعروف بصديق الفلاحين. في مقابل هذا المستوى من اختلاف اللغة بين الريف والمدينة، نجد في الأرض اختلافًا من نوع آخر. إنه اختلاف بين اللغة الرومانسية في الروايات السابقة وبين الأرض. وقد بدا الراوي مدرّكاً تماماً لهذا الاختلاف من خلال حوار مع وصيفة واختلاف أفق توقعات كل منهما عن الآخر في هذا الصدد.^(١٣)

وإذا كانت لغة الحوار مفقودة بين سكان فونتمارا وأهل المدينة بشكل عام، فإن السخرية، في المقابل، متوفرة لدى أهل المدينة تجاه الفلاحين، ويرتبط بها الاحتيا ل عليهم. فالراوي يتذكر مراراً كيف اعتاد أهل المدينة السخرية من أهل القرية، حتى رجال

(١٣) تشير سماح سليم إلى اختلاف آخر في الأرض بين لهجة أهل القرية واللغة الفصحى، وأن هذا الاختلاف يؤدي إلى سخرية الفلاحين من اللغة الفصحى ذات الطبيعة الرسمية. لكن هذا لا يبدو واضحاً لنا في سياق المشهد الذي أشرنا إليه من قبل عند كتابة العريضة، فقد طلب عبد الهادي استخدام اللغة الفصحى الراقية على سبيل الاحتشاد لتحقيق الهدف من العريضة والمجاملة لمحمد أفندي المدرس المتعلم الذي يستطيع أن يكتب بهذه اللغة. Samah Selim: *The Novel and the Rular Imaginary in Egypt 1880-1985*. New York and London. Routledge Curzon. 2004.

الدين منهم: فقد مل رجال الكنيسة من طلب سكان فونتمارا أن يأتي من يقوم بالشعائر الدينية في كنيستهم المهجورة، فرضخوا للطلب. وعند تلقي الفلاحين نبأ قدوم كاهن للكنيسة، استعد أهل القرية وخرجوا لاستقبال الرجل المهيب الذي اكتشفوا في نهاية الأمر أنه حمار [فونتمارا ٣٠ - ٣١]. أضافت الزوجة في أول حديث لها كيف استقبل أهل المدينة المحلية نساء القرية عندما ذهبن لمقابلة رئيس المدينة، بسخريّة من ملابسهن والقمل الذي يحملنه: فقد صاح أحدهم قائلاً: "لا تدعوهم يدخلن. إنهن سيملأن كل مكان بالقمل. فأغرق القوم في عاصفة من الضحك" [فونتمارا ٣٦]. كما يذكر الراوي الشاب في نهاية الرواية أن براردو فيولا عندما التقى الرجل الغامض في نهاية الرواية واستوقفه الأخير، ظن براردو أن الرجل قادم ليحتال عليه فقال له: "إني لا أملك درهما واحداً، في هذا العالم. ولو أنك تريد أن تخدع أي شخص، فمن المستحسن، أن تجد شخصاً آخر" [فونتمارا ٢٢٦]. ولا نكاد نرى مثيلاً لهذا الحديث عن سخريّة أهل المدن من الفلاحين في الأرض إلا في موضع واحد على لسان علواني وذلك على نحو يتناقض مع تكاتف أبناء المدينة مع الفلاحين في مواجهة ظلم السلطة وبطشها: "استنى يا عبد الهاديّ حيا اطلع كده من غير عصاية؟ لما أجيب عصاية أحسن الاولاد بتوع الزراعية يقبحوا علينا بكلمة؟ ولا يغنوا أو يألسوا . . وللا يغروا.. حاكم أنا عارف بتوع البندر دول.." (١٤) ولكن أهل البندر هم من ساعدوا أهل القرية وأيدوهم وأرسلوا البرقيات باسمهم وسعوا أكثر من مرة لإنقاذهم من المآزق الفردية أو الجماعية التي وقعوا فيها.

يجيد أهل المدن في فونتمارا التشدد بالعبارات الكلاسيكية التي لا يفهمها الفلاح، ويجيدون كذلك التلاعب بمصالح الفلاح من خلال توظيف القوانين لصالحهم. هذا ما يحكيه الزوج عن طريقة المحامي صديق الفلاحين في اقتطاع قدر كبير من أجر الراوي نفسه وبراردو فيولا و سكاربوني بناء على قانون جديد للأجور صدر بعد زمن من قيام الثلاثة بالعمل لصالحه. وهذا ما فعلته مالكة قطعة أرض بفلاح آخر وزوجته في نفس اليوم عندما أصرت أن يلتزم المستأجر بتقديم هدية من البيض مع الإيجار لأنه فعل ذلك مرة من قبل وبالتالي فيجب أن يسري عليه "قانون العادة" [فونتمارا ١٦٧ - ١٧٢]. بنفس القدر من الاستغلال والجشع والتلاعب بالقوانين، حصل رجال السلطة في المدينة المحلية على توقيع الفلاحين على بياض. وحصلوا منهم على تفويض لـ "هون بلينو" في إقرار نصه: "الموقعون أدناه قد أعطوا إمضاءاتهم بملء حريتهم، وبمحض اختيارهم، إلى هون بلينو مأمور الميليشيا، وكى يقدموا المساعدة المشكورة في الحال

(١٤) عبد الرحمن الشرقاوي: الأرض. ص: ٣٥٢. وسوف تجرّي الإشارة إلى مواضع الاقتباس من الرواية بعد ذلك في المتن مباشرة.

السالفة المنصوص عليها“ [فونتمارا ٢٠]. وهم طبعاً لا يعرفون ما المقصود بهذا الإقرار. ولم يكتف “هون بلينو” بهذا، بل إنه في النهاية، عند شعوره بسخرية الفلاحين منه، توقعدهم أن يشي بهم إلى السلطات التي ستأتي لتأديبهم. وبالفعل جاءت السلطة والمليشيا إلى القرية في غياب الرجال المشغولين بحضور مؤتمر حاشد في مدينة بعيدة بأمر السلطة، وقام رجال المليشيا باغتصاب النساء ثم احتجاز الرجال العائدين للتحقيق معهم وتصنيفهم ووضع التهم المناسبة لكل منهم. ولولا الصدفة لكان رجال المليشيا قد قضوا ليلتهم يتسلون بتعذيب أهل فونتمارا والتنكيل بهم. لقد جاء المعتدون إلى القرية بأعداد كبيرة فاقت قدرة أهلها على الحصر؛ فقد أكد الزوج والزوجة في الفصل الخامس أن العدد كان كبيراً جداً وأن السيارات التي حملتهم كانت تمتد مسافة طويلة على الطريق الرابط بين القرية والمدينة المحلية.

يقابل هذا المشهد حضور الهجانة إلى القرية في رواية الأرض وما فعلوه بأهلها. لكن الفرق بين الروايتين أن رجال الهجانة أغراب عن البلدة كلها، وهم رجال ما زالوا قادرين على الشعور ولا تغيب نخوتهم بدليل تحول الشاويش عبد الله إلى صف الفلاحين لاحقاً. أما من حضروا إلى فونتمارا فقد كانوا معروفين - أو بعضهم على الأقل - لأهل فونتمارا. وقد وصفتهم الزوجة بأنهم من المشردين الذين لا أصل لهم، ممن يتسكعون في المدن ويعرفهم أهل الريف، وهم لصوص؛ ”إن اللصوص المشردين لا يطمئنون إلى واجب المحافظة على النظام والسكينة. وهم رجال بلا عائلة وبلا شرف، وبلا صدق، وغير محترمين وفقراء، ولكنهم رغم ذلك أعداء للفقراء“ [فونتمارا ١١٢].

يبدو الفلاحون في فونتمارا أمام مشهد استغلال عام من كل المحيطين بهم، سواء أكانوا رجال سلطة أم عمالاً أم متسكعين من غير الفلاحين، في مقابل أزمة سكان القرية في الأرض الذين يجدون دعماً من أهل المدن والمتعلمين وبعض العمال في صراعهم ضد سلطة واحدة غاشمة متمثلة في حكومة حزب الشعب.

وإذا كان اللصوص والمتسكعون قد جاءوا للبش بأهل فونتمارا، فإن العمال القادمين من المدينة قد جاءوا للقضاء على أرضها وعلى أرزاق أهلها. ففي الثاني من يونيو فوجئ أهل القرية بـ ”...جماعة من عمال الطرق، كانوا قد قدموا من المدينة بمعاولهم ومقاطفهم . . . لكي يحولوا مجرى الترعة من موضعه الطبيعي بين الحقول والحدائق، التي كانت ترويه دائماً منذ أن وجدت الأرض، ومنذ أن وجد الماء... ولكي يرووا بعض الأراضي التي لا تدخل في زمام فونتمارا...“ [فونتمارا ٢٩ - ٣٠]. وكان ماء الترعة في الأصل قليلاً لكنه كان المصدر الوحيد لري أراضيهم، وضياح الماء يعني أن يموت الزرع من العطش ويموت السكان من الجوع. وقد اكتشف أهل فونتمارا أن هذا الأمر ناتج عن العريضة التي قدمها “هون بلينو” باسمهم وبناءً على توقعاتهم. وهنا،

وفي مواقف أخرى، يدرك الفلاحون أن الحكومة التي جاءت لتحكم باسم الفلاح هي التي تسرق الفلاح [فونتمارا ١٧٢]. وعادة ما انشغل سكان فونتمارا بالتناحر فيما بينهم على ما يتوفر من الماء الشحيح حسبما ذكر الزوج في أولى فقرات الفصل الثاني: "... كانت التربة تنحني عدة انحناءات ثم تنتهي بالمصب في اتجاه فشينو. وقد اعتاد فلاحو فونتمارا أخذ المياه من هذه التربة كي يرووا الحقول التي يملكونها بين جنبات الوادي، والتي تُكوّن ثروتهم الوحيدة في هذا العالم. وكانت المشاحنات العديدة حول تقسيم المياه، تنشب بينهم كل صيف. وفي سنوات الجفاف، كانت هذه المشاحنات تنتهي إلى منازعات دموية" [فونتمارا ٢٩]. هكذا جاءت الحكومة الجديدة لتسرق الفلاحين. إنهم لا يعرفون شيئاً عن الحكومة الجديدة ولكنهم يعرفون أن ذوي السلطة "في أول الأمر أحسن من غيرهم" لكنهم سرعان ما يتحولون ولا يبقى إلا تغيير الأسماء. [فونتمارا ٢٧ - ٢٨]. وبالفعل أدرك الفلاحون أن لا شيء يتغير سوى الأسماء والألقاب. هذه المشاحنات والنزاعات الدموية موجودة أيضاً في الأرض وخصوصاً عندما عدلت السلطة دورة الري وأنقصتها؛ فقد نشبت معركة دموية بين الفلاحين. تختلف صورة الحكومة أو السلطة في فونتمارا عن الحكومة في الأرض التي جاءت بعد حكومة محبوبة ومنتخبة. كانت السلطة في الأرض محددة جداً وكان النقد مقصوراً على حزب الشعب. يختلف هذا عن السلطة في فونتمارا التي كانت دائماً، وباختلافاتها وتنوعاتها، عدوّاً للفلاحين.

مع قدوم عمال الطرق إلى فونتمارا، أدرك الفلاحون الخديعة التي تعرضوا لها. فاعترضوا مرتين. لم يكن ببالهم أصلاً أن يتحول مجرى التربة التي تروي أرضهم بقدر شحيح من الماء. حاولوا الاعتراض مرتين: الأولى قامت بها نساء القرية عندما توجهن إلى رئيس الشرطة فاکتشفوا أنه تغير وأن لقبه أيضاً تغير. لقد أصبح المقاول هو رئيس المدينة، وصار لقبه "البودستا". واكتشفت النساء أيضاً أن الأرض التي سيتحول ماء التربة لريها وترك أرضهم عطشى قد اشتراها المقاول من مالکها الأصلي بثمن بخس قبل فترة. وهنا شعرت النساء بالغضب واتّهمن المقاول أو "البودستا" بالنصب، فوقف زعيم الجند و"قال: ليس هناك شيء من النصب. ومع وجود الحكومة الجديدة فإن النصب مستحيل الوقوع. وعلى العكس إن الأمر فعل قانوني وفعلاً إنها رحمة، وهبتها السلطات لسكان فونتمارا" [فونتمارا ٥٨]. وهو شعار من بين الشعارات التي ترفعها كل سلطة بحسب فهم سكان فونتمارا للموقف. ومن ثم؛ لم تفلح الحيلة البلاغية المباشرة في حل الأزمة والقضاء على غضب النساء واحتجاجهن. وهنا تقدم "شيركوستانزا" المحامي المشهور وصديق الفلاحين ليلعب دور الوساطة وليعبر عن رغبة النساء. إنه مصدر ثقة واحترام بين أهل فونتمارا: "لقد كان ... يُكن دائماً حبا صادقاً لأهل فونتمارا. وهذه

معارضاتهم في الأحكام تمر من بين يديه دائماً وأبداً. ولهذا السبب كان معظم بيض وكتاكيت فونتمارا، قد اعتاد أن يجد سبيله في الحال إلى مطبخ دون شيركو ستانزا... “ [فونتمارا ٥٥]. وهو من يفوز بأصوات أهل فونتمارا دائماً.

وقف المحامي يقول : ”إنهن يسألن الاحترام لهن. ومن واجبنا أن نعطينهن احترامنا لأنهن أهل لذلك. إن هؤلاء النسوة لسن بمحتلات. فهن قد فهمن أن القانون يطبق ضدهن. وها هن لا يجبن أن يقفن ضد القانون... إنهن ليستأنفن إلى قلبه العظيم. إنهن لا يستأنفن إلى رئيس البلدية ولكن إلى المحسن العام الكريم صديق الجماهير. إلى الذي أعطى كل شيء لبلده دون أن يأخذ شيئاً منه... هؤلاء النسوة يقلن إن نصف أمواه التربة لا تكفي لري أراضيهم. ولو أتي أفصح عن رغباتهن حقاً، لقلت إنهن محتاجات إلى أكثر من النصف. إنهن صائبات، وعشر مرات صائبات. هناك حل وحيد. وحل وحيد فقط: يجب على البودستا أن يترك ثلاثة أرباع مياه التربة. وثلاثة أرباع المياه التي تترك ، ستحفظ لسكان فونتمارا. وفي كلمات أخرى سيتناول كل ثلاثة الأرباع. وهذا أكثر من أن يتناول كل النصف. إن ذلك هو الطريق الوحيد الممكن. . . “ [فونتمارا ٦٠ - ٦١].

بهذه المرافعة المليئة بالعبارات المصكوكة الجوفاء، استطاع المحامي القدير أن يقف بين النساء الغاضبات المدافعات عن القوت، وبين المقاول الذي أصبح رئيس البلدية وبودستا. وقد ترك النساء ومن ورائهن باقي سكان القرية في حيرة: كيف يمكن تقسيم المياه إلى ثلاثة أرباع لكل طرف؟ !! وقد أفلحت الحيلة في جعل أهل فونتمارا يقفون منتظرين التجربة التي ستفسر لهم هذه الإمكانية الحسابية الجديدة.

وعند انتهاء التنفيذ، اكتشف سكان فونتمارا الخديعة، وأن الماء لن يكفيهم. لكن قوات الشرطة والمليشيا التي تساند المقاول / رئيس البلدية/ البودستا منعتهم من الاقتراب من التربة أثناء الاحتفال الرسمي بسرقة الماء لصالح المقاول الذي صار مالك الأرض التي يذهب إليها ماء التربة من الآن. اختارت السلطة ثلاثة من أهل فونتمارا لتمثيل الفلاحين في الافتتاح بينما وقف الباقيون محاطين بالجند على ربوة مرتفعة بعيدة حتى إنهم لم يمكنهم أن يروا ما يجري عند تقسيم المياه. وكان الثلاثة هم الراوي الزوج و”بونزيو بيلاتو” و”جياكوبي لاسيردو” ولكن الثلاثة رفضوا التقسيم مع ما رأوه من النقص الحاد في كمية المياه التي سيحصلون عليها. لم يقبل المقاول بغضب الثلاثة وما صاحبه من غضب الفلاحين البعيدين عن المشهد، فأبعد الثلاثة أيضاً واستدعى كلاً من ”هون بلينو” و”دون شيركو ستانزا” لتمثيل أهل فونتمارا. فوقف المحامي البارع من جديد يمتص غضب الفلاحين ويطلب منهم الهدوء مع وعد بأن يتكلم لمصلحتهم، ثم تحدث إلى المقاول: ”إن غضبة هؤلاء الناس، لها ما يبررها، لا بد من حل. إني أناديكم باسم

إنسانيتمكم. إني أناديكم كصديق للجماهير. إن أهل فونتمارا الطيبين يستحقون التكريم. لقد تحملت البلدية مصاريف حفر مجرى جديد للترعة. وما حصل قد حصل... ولهذا أقترح أن يوضع شرط ينص على أن التربة يجب أن ترجع بتمامها، إلى أهل فونتمارا... اسمحو لي أن أقدم اقتراحًا آخر، باسم أهل فونتمارا الطيبين، والمنهمكين في أعمالهم. إني أقترح شرطاً لمدة عشر عظيماً. إني أخاطب البودستا، وقلبه الشفوق سيقبل هذه التضحية العظيمة" [فونتمارا ١٨٤ - ١٨٥]. وطبعاً قبل المفاوض. وتساءل أهل فونتمارا أهي عشرة شهور حسبما قالت ماريا سوركانيرا؟ أم عشر سنوات أم عشرة قرون حسبما قال الإسكافي العجوز؟ إنها في كل حال تعني الجوع لفونتمارا بأكملها. وهي لا تقل إلغازاً واحتيالاً عن الثلاثة أرباع المشار إليها سابقاً. هكذا كان "شيركو ستانزا" على الدوام، يبدأ خطابه مدافعاً عن الفلاحين ثم يقدم حلاً يصعب عليهم فهمه بالتحديد، يفتح لهم باب الأمل لكنه لا يحدد نقطة نهاية.

بمثل هذه العبارات استطاع المحامي الماكر أن يكتسب ثقة أهل الريف فيه حتى غدا لقبه "صديق الجماهير". وهو أيضاً من استطاع الفوز في كل الانتخابات التي خاضها؛ ليس لأنه الأفضل فقط، وإنما لأنه من تكلف إرسال من يعلم الفلاحين كيفية كتابة اسمه في زمن انتشرت فيه الأمية وكان على الناخبين اختيار مرشحهم بكتابة اسمه. ومن هنا لم يكن في مقدورهم اختيار غيره حتى لو أرادوا [فونتمارا ٥٦]. وهذا المحامي يمثل نموذجاً للمحامين العاملين في المدينة الذين ينتفعون من مشاكل الفلاحين وشكاياتهم ومشكلاتهم. ولا يختلف عن غيره المحامين في المدينة المحلية ولا حتى عن المحامين في روما ممن التقى بهم الراوي الابن مع "براردو فيولا" خلال رحلتها إلى روما بحثاً عن عمل. مع نقص كمية المياه وموت الزرع في الأرض وبوار الأرض ذاتها، وقف الفلاحون حائرين لا يدرون ماذا يفعلون، خصوصاً أنهم اعتادوا أن ينشغلوا بصراعات فيما بينهم عن مواجهة مشكلاتهم المشتركة. وقد بدا أمامهم في هذه الأزمة أن يفكروا في مخرج فردي كما هي عادتهم أيضاً. هذا ما حدث من قبل عندما وجد رجال فونتمارا أنفسهم محاصرين من قبل ذوي القمصان السود الذين تحلقوا حولهم بعدد كبير لمنعهم من الوصول لبيوتهم أثناء حملة السلطة والمليشيا على نساء القرية لاغتصابهن، وكان قائد الجند يستجوب الرجال العائدين ليعرف كيف يصنفهم، بينما هم لا يعرفون المشكلة التي تجمعهم معاً في وسط الدائرة: "ولقد كان الواحد منا، يقابله ثلاثة على الأقل منهم، ولكن أية فرصة تلك التي تواتينا، ونحن في وسطهم؟ ولكن ما الذي يربط الواحد منا بالآخر؟ وأية مسافة تلك التي بيننا؟... نحن جمعاً من مواليد فونتمارا. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يدور برؤوسنا. وها هو كل واحد منا يفكر في نفسه أولاً. وأخذ كل فرد منا يفكر في الطريق الأحسن، للخروج من دائرة الرجال المسلحين، ويترك

الآخرين خلفه...“ [فونتمارا ١٢٠]. هذا أيضًا ما فعله سكان فونتمارا عندما شح الماء ومات الزرع. لم يذُر بباهم أن يتحدوا ليحصلوا على حقوقهم وليقاوموا الظلم الواقع عليهم بأشكال متعددة. كانوا خصومهم يعرفون أنهم فئة واحدة بينها الكثير من الأمور المشتركة التي تجعلها فئة متحدة، لكنهم كانوا عاجزين عن إدراك هذا الأمر. كان عليهم أن يدركوا وحدتهم إزاء خصمهم الذي جمعهم في دائرة واحدة، وإزاء مشكلتهم المشتركة، وأنهم يخوضون صراعاتهم باعتبارهم فئة واحدة وليست طبقة واحدة. إنهم فئة الفلاحين الفقراء سواء من صغار الملاك أو من الأجراء. لكن تركيز الرواية كان على صغار الملاك أكثر منه على غيرهم.

وقف الفلاحون حائرين لا يعرفون ماذا يفعلون. لقد وحدتهم المشكلة الأخيرة في حيرة وتساؤل كبير، ”وكان جميعهم، البعض مثل البعض الآخر، فما من أحد هناك كان راضيًا عن فقد المياه. ما من أحد كان راضيًا عن فقد محصوله بأكمله. ما من أحد كان راضيًا عن تقديم نفسه إلى فصل الشتاء وهو بلا خبز أو حساء“ [فونتمارا ١٩٦]. لقد اتضح أن الفلاحين المعدمين - حتى مع امتلاك بعضهم أرضًا - يقفون مهزومين أما تحالف رأس المال والسلطة، هذا التحالف الذي تجمع في شخص المقاول صاحب المال والنفوذ ومن خلفه المصرف. هذا ما انتهى إليه الإسكافي العجوز: ”لقد وصلنا إلى حد، لم يعد عنده لدى الفلاحين خبز، أو إسكافيين، ولا أحذية، أو خياطين، وقد تمزقت سراويلهم، والبنائون لا يجدون ما بينوه فوق رؤوسهم. إن هذا هو عهد المصرف. إن هذا هو نهاية كل شيء...“ [فونتمارا ١٩٥].

كان الاحتمال الأول أن يقاوم الفلاحون الظلم برفع دعوى قضائية ضد المقاول والمصرف وكل شيء، هذا ما اقترحه ”بونزيو بيلاتو“ لكن النهاية معروفة للفلاحين جميعًا. وبقي أن يفكر كل منهم في حل فردي لكنه لن يعيد الماء. ثمة احتمالات أخرى، ”في ذات مساء، قال الإسكافي العجوز: وعندما يسقط القانون، ويُحطَّم، فإن أول من يهاجمه، هو ذلك الذي كان عمله تطبيقه، إن هذا هو الوقت، الذي ينبغي فيه الرجوع إلى قانون الجماهير. . . أن يساعد الله، ذلك الذي يساعد نفسه. وهكذا انتهى بالديسيرا بأن يوافق على مذهب براردو فيولا القاسي الحاد“ [فونتمارا ١٩٧]. ورغم أن هذا الحل كان على مذهبه، إلا أن ”براردو فيولا“ انصرف عنه وبدأ يفكر في خلاصه الفردي.

قررا براردو فيولا أن يسافر مع ابن الراوي إلى روما بحثًا عن فرصة عمل لكسب المال الوفير بعد أن سمعا من بيسينو جوريانو - العائد من المدينة بعد أعوام طويلة - كيف يكسب الناس في روما الكثير من المال مقابل العمل القليل. كان حلم الخلاص الفردي والحصول على المال الوفير ما يشغل هذا الرجل المتمرّد دائمًا والذي كان قدوة لكثير من

الشباب في القرية. ولم يكن احتمال الاتحاد من أجل الخلاص الجماعي ما يشغله أو يشغل غيره، لولا الأخبار الواردة عن مناطق أخرى في الريف بدأت تثور في وجه السلطة، وخصوصًا "سالمونا" القريبة من فونتمارا. وقد حاول "رفائيلي سكاربوني" أن يثني براردو فيولا عن عزمه وأن يطلب منه العودة إلى فونتمارا ليجمع الشباب حوله ويسعوا للوقوف في وجه الظلم بتطبيق قانون الجماهير الذي تحدث عنه الإسكافي العجوز.

هنا انفصل "براردو فيولا" والراوي الشاب عن القرية واتجها معًا إلى روما بحثًا عن عمل. لكنهما لم يحصلوا على شيء في المدينة. التقى "فيولا" مصادفة برجل سبق أن تحدث إليه في مدينة "أفيزانو" التي حضر فيها مؤتمرًا حاشدًا بأمر السلطة. وقد عرف من هذا الرجل أن التمرد عام في كثير من المناطق بفضل "الرجل الغامض" الذي يثير غضب السلطة ويستفزها ببياناته الثورية وبتجميع الناس ضدها. وبعد حديث مطول بين "براردو فيولا" وهذا الرجل، اتضح أن هذا الرجل هو نفسه الرجل الغامض الذي تبحث عنه كل السلطات الأمنية في إيطاليا. وهنا، قرر "براردو فيولا" أن يعود إلى قانونه القديم، بل أن يتحول إلى فدائي ينقذ الرجل الغامض من يد الشرطة ويتركه يذهب ليوصل عمله، فيما ادعى هو أمام سلطات التحقيق أنه - أي براردو فيولا - هو الرجل الغامض. وصل "براردو فيولا" إلى قراره الأخير بعد صراع مع النفس وبعد أن علم بوفاة حبيبته "ألفيرا" في فونتمارا. حمل "براردو فيولا" رسالة أخيرة للراوي الشاب خلال وجودهما في زنازة واحدة في روما: "... لو أتي مت، فيجب أن تحمل هذه الكلمة إلى فونتمارا. الاتحاد. يجب أن تجربهم جميعًا، وأولهم رفائيلي سكاربوني، ثم بعد ذلك جميع الآخرين، ميشيل زومبا، والجنرال بالديسييرا، وبونزيو بيلاتو، وأنتونيو دانوشيا، ثم جميع الباقين، الاتحاد. يجب أن يوضع حد للبغض، الذي بين الفلاح والفلاح. ويجب أن نقضي على البغض الكائن بين الفلاح والعامل. هناك شيء وحيد، نحن في حاجة إليه - الاتحاد. والباقي جميعه سوف يأتي بعد ذلك، من تلقاء نفسه" [فونتمارا ٢٤٤]. ويبدو أن "فيولا" قد توصل هنا إلى الحل وإلى إعادة صياغة أطراف الصراع لتكون مبنية على الطبقة وليس على الفئة.

توصل براردو فيولا إلى فكرة جوهرية لم تكن مطروحة من قبل بالنسبة لأهل فونتمارا، وهي الاتحاد في مواجهة الظلم الذي يهاجمهم جميعًا. لقد تعرض أهل فونتمارا للتنكيل فقط لأنهم من مواليد فونتمارا ومقيمون فيها، حسبما نقلنا من قبل. ولم يفكر أهل فونتمارا يوما في وضع صراعاتهم جانبًا والاتحاد، ولم يفكروا، بالطبع، في الاتحاد مع غيرهم من الفلاحين والعمال. كانت هذه هي الوصية التي حملها للراوي الشاب ليعود بها إلى فونتمارا التي كانت قد حسمت أمرها وقررت التمرد بناء على تفكير زعمائها المحليين، ثم بتأثير من تمرد "سالمونا" القريبة منها، وأخيرًا بتأثير الرجل الغامض الذي انطلق إلى

فونتمارا ومعه آلة طباعة صغيرة أهداها للسكان لبنوا وعيا جديداً بين أهل القرية ويعبروا عن أنفسهم وعن طموحهم في الحصول على فرصة حقيقية في حياة كريمة وفي التخلص من الظلم والظالمين: ”وصل ابني في الوقت الذي اجتمع فيه حوالي خمسة عشر منا، حول الصخرة والمواد الأخرى، التي أعطاهنا لنا الرجل الغامض، كي نطبع صحيفة الفلاحين الخاصة - أول صحيفة خاصة بالفلاحين...“ [فونتمارا ٢٤٧].

إذن فالمقاومة ستبدأ من التوعية بعد أن تحقق الوعي بالأزمة الحقيقية في صورتها الشاملة. لم يكن الطريق يبدأ بالمقاومة المادية، وإنما بالتوعية من خلال إصدار جريدة خاصة بالفلاحين ومشكلاتهم. كان المحتوى الذي سيكتبه الفلاحون مهماً، وكان مثاراً للنقاش. لكن الأهم كان اختيار العنوان؛ فلكل صحيفة عنوان. بدأ الفلاحون يفكرون فيما سيختارونه عنواناً للصحيفة:

”وأراد بطل بورتاليا أن يكون الاسم من نوع الاسماء التي في المدن، كالمراسل، أو المنتخب، وهكذا. ولكن ”رفائيلي سكاربوني“ الذي كان يتبع سبيل ”براردو فيولا“ ما لبث أن طلب منه الصمت والسكوت... واقترح ميشيل زومبا اسماً حسناً وهو الصدق... ولكن سكاربوني لم يطمئن إليه.. ما الذي نفعله به - نفعل حساء؟... وانسأقت إلى الجنرال بالديسيرا فكرة طيبة: العدالة.... يجب أن تذكر أن كلمة العدالة عندنا كانت تعني دائماً الجند. وإن سقوط المرء بين يدي العدالة، يعني سقوط المرء بين يدي الجند وأن العمل لأجل العدالة، يعني أن يكون الإنسان جاسوساً أو مخبراً للجند... وكان اقتراح سوركانيرا، لأجل اسم الصحيفة، هو عهد الفلاحين. وقال سكاربوني ما الذي نفعله؟

وقال البطل: يجب أن نجد اسماً حسناً. لقد أبديت اقتراحاً.

- لقد انتهيت إليه في الحال: ما الذي نفعله؟

وبعد أن جعلناه يكرر ذلك، ثلاث مرات، تحققنا من أن اقتراح سكاربوني، لاسم الصحيفة، كان حقيقة، ما الذي نفعله؟ ونظر كل منا للآخر في دهشة. “ [فونتمارا ٢٤٨ - ٢٤٩].

لقد توصل سكاربوني إلى الاسم الذي شرحه لباقي رفاقه من أهل فونتمارا والذي كان بمثابة تساؤل مفتوح ظل يتكرر خلال الصفحات المتبقية من الرواية. وكانت كل واقعة جديدة لا تخرج عن أن تضيف تساؤلاً يبحث عن حل ولا يتوقف عند إفراغ شحنات الغضب حسبما اعتاد الفلاحون من قبل.

يختلف هذا تماماً عن رواية الأرض التي انتهت نهاية كلها استسلام وهزيمة ساحقة

بدأ بعدها الضحايا يفكرون في التكيف مع وضعهم الجديد، وقد اكتفوا بالإفراج عن المحبوسين. فنهاية تأتي بعد هزيمتين متتاليتين في صيف واحد، وبعد أن خرج الراوي الصغير بسلام من القرية بصحبة أخيه ليعود إلى القاهرة. وخلال الطريق إلى محطة القطار، مر الاثنان بأجزاء من السكة الزراعية الجديدة ولاحظا حركة الناس ووسائل النقل عليها، وشرح الأخ الكبير للراوي الصغير إمكان الاستفادة من السكة الجديدة في وصول التلاميذ لمدارسهم البعيدة.

٥ المدينة والعائدون منها:

لم تكن المدينة تشغل بال أهل فونتمارا وتبهرهم. كانت علاقتهم بالمدينة مقتصرة على قضاء مصالح سريعة من قبيل دفع الإيجار أو إنجاز عمل إداري أو تقديم طلب للحصول على خدمة ما، أو ربما زيارة شخص يعرفونه لتحصيل أموال لهم. لم تكن المدينة تبهرهم أو تشغلهم بما بها من تفاصيل تختلف عن عالمهم الذي يعيشون فيه. وكان أهل المدينة بالنسبة لهم أشخاصاً آخرين يجيدون استغلال الفلاحين وجهدهم ولا يدفعون لهم ما يستحقون من أجر. وهم عموماً مقارنة بأهل الريف يعيشون حياة مختلفة ؛ فهذا بطل بورتايا يتحدث إلى أهل فونتمارا فيقول: "وها هم الفلاحون، لا يزالون يحرثون الأرض بالمحاريث الخشبية، في حين أن أهل المدن، يهرعون في السماء بطياراتهم. والفلاحون منصرفون إلى اقتصاد النقود النحاسية، كل عشرين منها تساوي ليرة. في حين أن أهل المدن، لا يتكلمون عن غير الأوراق، وقيمة الواحدة منها ألف ليرة: إن الفلاحين يعانون الجوع، وينصرفون إلى إعداد الأرض منذ الفجر حتى غروب الشمس، في حين أنه في المدينة، يمكنك أن تعمل ثروة سريعة، بضرب الناس في الشوارع" [فونتمارا ١٥٩]. وما يقوم به أهل المدينة من عمل، لا يكاد يحقق تقدماً. يلاحظ الراوي الشاب مثلاً خلال رحلته إلى روما: "... وجدنا جماعة كبيرة من الناس، خارج حانتنا، وأرأينا عربة عسكرية للطعام، قد انقلبت، وهي راقدة على جانبها، بجوار الحائط. وكان هناك جمع من الناس، يحاولون تحريكها. ولوحظ أنهم يحدثون ضجيجاً وصخباً، ولكنهم ما كانوا يتقدمون في عملهم شيئاً، كما هي العادة دائماً بين جماعات الناس في المدن" [فونتمارا ٢١٤]. وفي مقابل هذه الجماعة، استطاع "براردو فيولا" وحده أن يقوم بالعمل وسط دهشة الحضور.

وكان أهل المدينة يستقبلون أهل الريف بالسخرية التي حكى عنها الزوجة في الفصل الثاني عندما تضاحك أهل المدينة من نساء فونتمارا واحتمال حمل ثياهن وأجسادهن للقميل، كما حكى الزوج عن السخرية التي تعرضت لها القرية عندما أرسلوا لها حمراً في موكب ليكون كاهناً في الكنيسة. كذلك، حكى الزوج في الفصل الرابع عن السخرية

التي استقبل بها أهل مدينة أفيزانو فلاحى فونتمارا ورايتهم الطويلة.
لم تكن المدينة تسخر من أهل فونتمارا فحسب، بل إنها تمارس عليهم كل أنواع السلطة والظلم والاستغلال. وهذا ما حكى عنه بقدر ما الراوي الشاب، وأفاض في شرحه بطل بورتابيا العائد إلى القرية من روما بعد ٣٥ عاما قضاها هناك وبعد أن فهم ألاعيب السلطات المتعاقبة فيها.

تضم المدينة المؤسسات والجهات الرسمية التي يحتاجها الفلاحون، كما تضم جهات عمل يمكن أن يحقق منها الريفي أموالاً كثيرة بسرعة ويسر في مقابل ظروف العمل الصعبة في الريف. لكن المدينة أيضا هي مركز الحكم والسلطة. وهذا أمر يستعصي على الفلاحين فهمه بوضوح؛ فهم لا يعرفون بدقة ماهية السلطات الحاكمة ناهيك عن فهم التغيرات المتلاحقة التي تشهدها سلطات الحكم في المدينة. هذا ما عبر عنه ميشيل زومبا في الفصل الأول خلال حوار مع هون بللينو: ”انظر هنا.. في المدينة أشياء كثيرة تحصل. ففي المدينة شيء واحد يحصل على الأقل كل يوم. ففي كل يوم تأتي صحيفة وتخبّرنا أن شيئاً واحداً على الأقل قد حصل. والآن ما عدد الأشياء التي تحصل في نهاية العام؟ مئات ومئات. فكيف بالحق وسلطان، يوجد على الأرض فلاح فقير، يعلم كل شيء قد حدث؟ إن هذا هو المستحيل. ولكن الأشياء التي تحصل هي شيء واحد. وإن الناس أول الأمر هم أحسن من غيرهم. وإن هؤلاء الناس هم السلطات. وفي بعض الأحيان يغيرون أسماءهم لكن دائماً هم السلطات“ [فونتمارا ٢٧ - ٢٨]. وتشير تعليقات كثير من الفلاحين إلى أن كل السلطات لا تهتم لأمر الفلاحين ولا تفكر فيهم إلا لتجبي منهم الضرائب والرسوم وتفرض عليهم القوانين. ولكن لا توجد حكومة واحدة تعرف الفلاحين معرفة حقيقية [فونتمارا ٢٣٨]. كل ما يهم السلطة - أية سلطة - أن تحصل على ما تريد من الضرائب والمصالح، وإن استدعى الأمر، أن تفرض قوانين جديدة لمصلحتها وتستغل وضعها للحصول على ماتريد. هذا ما فعله المقاول الذي غدا صاحب السلطة في المدينة المحلية فكتم المعلومات حتى اشترى أرضاً من مالكها بثمن بخس، ثم حوّل مجرى التربة التي تروي أرض فونتمارا، واستغل عمال الطرق في تنفيذ مشروعه ثم وفر لهم الحماية مستخدماً الجنود التابعين للشرطة التي يتولى رئاستها. تقوم الحكومة أيضا بتنظيم العمل وفرض ضرائب جديدة على الفلاحين والعمال وهم لا يملكون رفضاً لهذه الضرائب ولا لتلك القوانين. تحكي ماريا سوركانيرا للراوي الأول عن خطاب وصل إلى ألفيرا و ”... أنها لم تستطع تفسير شيء، لا الرأس ولا الذيل. وجل ما استطعت قوله، إنهم في سبيل انتزاع حرية العمل منا. لقد كان جميع آباء ألفيرا، وكذا أجدادها، من الصباغين والنساجين، وما من أحد تطفل عليهم، ولكن الآن، ها هم قد كتبوا إليها، وأخبروها بأنها لو كانت تريد الاستمرار في العمل، فيجب عليها أن

تدفع ضريبة، وتستخرج أوراقاً" [فونتمارا ٧٥].

أما ذروة استغلال أهل المدن عموماً لأهل الريف فتتمثل في الحرب التي يشعلها سكان المدن، لكنهم لا يخوضونها بأنفسهم. هذا ما يراه الإسكافي العجوز بالديسيرا: "...إن أهل المدن هم الذين يعلنون الحرب، ولكن الفلاحين هم الذين يحاربون..." [فونتمارا ٧٦]. ويتفق هذا مع ما فعلته السلطة بالفلاحين في الأرض عندما قبضت عليهم وادعت أنهم متطوعون ثم أرسلتهم إلى حرب في الشام لا يعرفون عنها شيئاً، بل لا يعرفون من يحاربهم وهذا ما حكاه محمد أبو سويلم [الأرض ١٨١]. لما كان سكان المدن ماهرين في الحديث والجدل، فلا فائدة من الجدل معهم؛ هذه هي حكمة براردو فيولا القاطعة: "... لا فائدة من الجدل مع أهل المدن" [فونتمارا ٦٦]، لأنهم لا يفهمون إلا لغة المصالح والمكسب والخسارة. والبتالي فهو لا يحاول مجادلتهم وإنما يعمد إلى تخريب ما يمثل ثروة بالنسبة لهم: أعمدة الإنارة التي حطمها انتقاماً من انقطاع الكهرباء؛ تكسير المواسير؛ تحطيم اللافتات. وكان يفسر مقولته بقوله: "إن القانون يضعه أهل المدن، ويطبق بواسطة قضاة هم من أهل المدن، ويفسر بواسطة محامين من أهل المدن، فبالله كيف يطمع الفلاحون في العدالة ويريدونها؟" [فونتمارا ٦٧]. بناءً على ذلك، يرفض "براردو فيولا" كتابة الشكاوى والعرائض، وكان يرى البديل في الانتقام المباشر الذي يمكن أن يحقق نتائج مباشرة. ولهذا كانت نصيحته للفلاحين عندما استولى المقاول على ماء التربة: "... أشعلوا النار في مصنع الخشب، وهو سيرد إليكم ماءكم، دون حاجة إلى جدال. وإذا لم يفهم، فأشعلوا النار في البناء المكسب بالأخشاب. وإذا لم يكف ذلك فانسفوا مصنع الطوب. وإذا كان غيبياً، ولم يفهم بعد كل ذلك، فاحرقوا - الفيلا في الليلة، يكون خلاها في المخدع، راقداً مع - دونا روزاليا - هذه هي الطريقة الوحيدة كي ترجعوا إليكم ماءكم. وإذا لم ترضوا بذلك، فهو سيأخذ يوماً ما بناتكم، ويبيعهن في - مكان السوق - وأنا في هذه الحال لن ألومه. وماذا تساوي بناتكم، على أي وجه من الوجوه" [فونتمارا ٦٨]. وفي العبارة الأخيرة ما يدل على رؤية "براردو فيولا" لتطور الأحداث وكيفين إذلال السلطة للفلاحين عموماً، والمقاول لأهل فونتمارا خصوصاً. هذا ما فعله المقاول مستخدماً الشرطة والمليشيا، عندما أرسلهم لاستجواب الرجال واغتصاب النساء.

كان هذا "نهب براردو فيولا" نفسه في حياته: الانتقام الصامت. وهو مختلف عن أهل فونتمارا لرغبته في حياة أفضل له: "كان براردو قد باع شقة الأرض، التي خلفها له أبوه، منذ عدة أعوام، بعد أن عزم على الهجرة إلى أمريكا. ولكن تصريح الهجرة لم يأت. ومن ثم لم يكن أمامه سوى البقاء في فونتمارا، وهو أشبه ما يكون بكلب قد هرب من السلسلة التي تحفظه، ولكنه ما استطاع أن يستمتع بحريته الجديدة المردودة.

وقد شعر بالجوع يكاد أن يقتله، بعد أن ضاعت المزايا التي كانت له من قبل. ولقد كان بطبعه بعيداً عن أن يكون من موطدي السلام“ [فونتمارا ٦٥].

كان ”براردو فيولا“ و”بيينو جوريانو“ نموذجين لأقصى وأقصى درجات استغلال المدينة وأهلها للفلاحين: فالأول هجر الأرض التي كان يمكنه أن يزرعها وصار أجيراً بسبب حلمه في الهجرة، ثم ترك فونتمارا قاصداً روما من أجل الحصول على المال الوفير، لكن حياته انتهت بالموت قتيلاً في زنزانة عندما حاول أن يحمي الرجل الغامض ويترك له الفرصة للوصول لأكبر قدر من الفلاحين وحثهم على الاتحاد والتمرد في وجه الظلم. كذلك، تمثل شخصية بيينو جوريانو وظهورها في منتصف الرواية أهمية كبرى في بلورة رؤية أهل فونتمارا لوضعهم في مقابل أهل المدينة عموماً وفي مقابل السلطة على وجه الخصوص. وعند عودة بيينو جوريانو، نجد الراوي الأول - الزوج - يترك له مساحة ليقوم برواية الجزء الذي يعرفه، ولكنه لا يحظى بصوت مستقل وإنما هو صوت من داخل صوت الراوي الأول. وهو الراوي الوحيد الذي لم يقدم روايته لجزء من مسار الحبكة وإنما روى قصته الشخصية التي تمثل استرجاعاً لخمس وثلاثين عاماً، وشهادةً على ما حدث في المدينة التي لا يعرفها أهل فونتمارا. ولم تكن روايته إلا توضيحاً لما تغير في المدينة في مقابل ثبات رآه الراوي في رؤية أهل الريف: ”ووصلتنا أخبار غير منتظرة، عن حال العمل في المدن، من شخص ما دار بجلدنا قط، أن نراه في فونتمارا مرة أخرى“ [فونتمارا ١٣٥]. هو ابن القرية العائد إليها بعد خمسة وثلاثين عاماً من الغياب حتى ظنه أهلها قد مات أو حقق ثراءً ونسي أمر قريته. وهو يعود بوحي جديد يساهم في تغيير وعي الفلاحين، على خلاف أبناء القرية العائدين إليها في رواية الأرض: الشيخ حسونة وعم كساب والعمال الذين فقدوا أعمالهم - وحتى الراوي الصغير نفسه. فلم يكن العائدون إلى القرية في الأرض يحملون وعياً جديداً كاشفاً. بل إن كشف ألاعيب السلطة لم يتحقق على أيديهم وإنما على يد محمد أبو سويلم الذي استطاع أن يكشف حيلة العمد الممتثلة في توظيف شعبان المجذوب لبث الفرقة بين أهل القرية ولجمع الأخبار وتغيير الرأي العام إزاء السكة الزراعية الجديدة [الأرض ٢٨٦ - ٢٨٧].

لقد ذهب بيينو جوريانو إلى روما بحثاً عن الرزق وطمعاً في تحقيق ثروة تعينه على الزواج من حبيبته ماريلا سوركانيرا، بدأ يحكي عن نفسه بضمير الغائب لأن أهل القرية لم يتعرفوا عليه فأراد تشويقهم أكثر: ”حسناً، لقد رحل بيينو جوريانو إلى روما، منذ خمسة وثلاثين سنة، أملاً في أن يكون ثروة. وكان يقصد أن يعود إلى فونتمارا، بمجرد تكوين هذه الثروة، كي يتزوج من فتاة كان يهاوها في السادسة عشرة من عمرها، ولقد كان اسمها ماريلا سورشيتونيرو“ [فونتمارا ١٣٨]. ولكنه غاب طويلاً حتى ظن الناس به الظنون. وقد عاد ليجد كل أهله قد ماتوا قبل سنوات طوال، كما أن حبيبته الشابة

الجميلة صارت أرملة كبيرة في السن، فقدت جمالها. ما فقده بيبينو جوريانو هو الثمن الأول الذي دفعه نتيجة اختطاف المدينة له، لكنه لم يكن الثمن الوحيد. فهينته توضح ثمنًا آخر دفعه: "كان رجلًا ضئيل الجرم، متقدما في العمر، محدودب القامة، يبدو فتراه، لا هو يمت إلى الفلاحين، ولا هو يمت إلى أهل المدن، أو تراه فتحسبه فلاحًا، قد ارتدى لباس أهل المدن. وكان قد قدم في ذات ليلة، يلهث أنفاسه، حتى وصل ميدان فونتمارا الصغير. وهو يحمل حقيبة فوق كتفه..." [فونتمارا ١٣٥]. فهذه الهيئة تدل بشكل قاطع على أنه فقد هويته بصورة تامة، كما تدل على فشل رحلته إلى روما فشلاً ذريعاً. حكى بيبينو جوريانو أنه وجد عملاً لكنه لا يحقق له غير أقل ضروريات الحياة ثم "... أصبح متعطلاً دون العمل لفترة ما. وكان يكسب بضعة درهيمات من هنا وهناك، ولكنها ما كانت ترضى بإرواء ظمئه. وقليلًا ما كانت تدعه ينام ويأكل. وأحياناً كان ينام في حدائق النباتات أو في الكولسيوم، أو تحت بواكي إيزيدرا. وذلك تبعاً لأزمة العام..." [فونتمارا ١٣٩]. وهكذا صار عاطلاً ومُشرِّداً وجائعاً. ولما اشتد عليه الجوع، وجد نفسه أمام طيف القديس روكو "... يشرح له كيفية الدخول إلى حانوت البقالة، في المقاطعة المجاورة. وفي الحال استيقظ بيبينو، ولم يحس بنفسه إلا وهو يقتحم حانوت المؤن واللوازم. ولكنه سرعان ما قبضت الشرطة عليه..." [فونتمارا ١٣٩]. وكانت عقوبته في هذه المرة هي السجن ثمانية أشهر. وفي مرة أخرى سرق حذاءً من متجر أثناء أعمال شغب دخل السجن مرة ثانية لمدة أكبر من زملائه في الجريمة لأن غرضه كان السرقة بينما كان تبريرهم بناءً على أسباب سياسية [فونتمارا ١٤٥].

ولكنه "وبعد نهاية مدة الحكم، أحضر بيبينو إلى دار الشرطة، ثم خبروه، إما أن يفعل ما سيخبرونه به، وإما أن يترك روما، ويرجع إلى فونتمارا في هذه الليلة... ومن قرارة القلب، قبل بيبينو عمل الشرطة، المنطوي على أن يقوم بعمل سياسي. وأعطى مقدماً مبلغاً من المال، قدره خمسون ليرة..." [فونتمارا ١٤٥]. وقد اندهش الفلاحون لسماعهم مقدار ما حصل عليه مقابل عمل تافه بالنسبة لهم. لكنهم لا يعرفون شيئاً عن السياسة. وقد كان يتعرض للضرب عندما يهتف بما أخبرته به الشرطة، ولكن هذا غير مفهوم أيضاً للبسطاء الذين لا يعرفون السياسة: فقد "... كانت الشرطة تدفع له في اليوم خمس ليرات، مع زيادة - كتعزية - قدرها خمسة وعشرون ليرة، في كل مرة يُرسل فيها إلى المستشفى. ولقد كان الحصول على خمس ليرات في اليوم، أمراً يهون إزاءه كل صعب..." [فونتمارا ١٤٧]. ومن ثم كان يقوم بعمله المتمثل في الهتاف لكل التيارات السياسية في إيطاليا خلال مدة عمله. واستمر يتحمل الضرب حتى لم يعد ذلك محتملاً، "...وبعد فترة أُرسل في طلبه، وبعد أن أعطي مبلغاً من المال قيل له: أمامك الخيار، إما أ، تفعل ما نأمرك به، وإما أن ترحل في هذه الليلة بالذات، وترجع

إلى فونتمارا. ولكن في هذه المرة، لم يكن الأمر مقصوداً على احتمال الضرب فقط. لقد كان نوعاً جديداً من السياسة. أجر قدره عشرون ليرة في اليوم، وجوازاً للركوب في المركبات الكهربائية مجانياً، والحق في أن يُضرب وأن لا يُضرب“ [فونتمارا ١٤٩]. كان العمل الجديد أن يقوم بالتخريب باعتباره من المواطنين الشرفاء الذين يرفضون الصحافة المضادة للفاشية متمثلة في صحيفة شيوعية في منطقة بورتايا، كان يبينو هناك مع جماعة من اللصوص الذين يعرفهم ”... رأوا فرقاً من الجنود والحراس الملكيين، تدخل دار صحيفة شيوعية، ثم يخرجون منها، وهم مصطحبون جميع من فيها كأسرى وجاء شرطي، كي يخبر يبينو جوريانو ورجاله، أن كل شيء الآن، على تمام الاستعداد، وإذا لم يبق هناك ما يُخشى منه، وأنهم يمكنهم الآن مهاجمة دار الصحيفة. وما لبثوا أن فعلوا ذلك. فهوجمته الدار، وأخرج الأثاث إلى وسط الشارع، ثم أحرق مع ما أحرق من كتب وأوراق... وقبل أن يتركوا الدار المحطمة، قدم جماعة من الصحفيين وأخذوا يصورون المهاجمين، وقد توسطهم يبينو، وهو يلوح برجل منضدة. وفي اليوم التالي، ظهرت صورته كذلك في البيوكولا - تحت عنوان بطل بورتايا“ [فونتمارا ١٥١ - ١٥٢]. ولكنه عندما قرر أن يتوقف عن العمل وجد نفسه عاد مفلساً مطروداً أجبرته الشرطة نفسها على العودة إلى قريته، بلا مال ولا نجاح. لقد فقد كل ما كان يحبه وما كان يملكه وما عانى من أجل الحصول عليه.

استطاع البطل المزيف أن يشرح للمتجمعين حوله في ميدان فونتمارا الصغير كيف تلاعبت الشرطة بعقول الناس في سنوات عمله وكيف استخدمت في عملها هذا اللصوص ونهايي البيوت. كما شرح لهم كيف أن القوانين التي تصدرها الحكومة قد زادت زيادة مهولة بحيث كان يصدر في كل يوم قانون جديد. وكان أهم ما شرحه يبينو جوريانو لأهل فونتمارا هو سيطرة حالة الخوف على الجميع: ”...لقد قبض الخوف على زمام كل واحد. ولم يكن الأمر مقصوداً على أعداء الحكومة، ولكن المسمين بالفاشيستيين، كانوا هم أيضاً أكثر خوفاً وجزعاً من أي كائن آخر. وكانوا يقولون إن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النهج، ولكنهم كانوا خائفين. ولكن لماذا قتلوا أضدادهم؟ لأنهم خائفون. ولماذا أزدادوا عدد الشرطة والمليشيا؟ لأنهم خائفون. ولماذا وضعوا آلافاً وآلافاً من الناس الأبرياء في السجن؟ لأنهم خائفون... والبابا خائف أيضاً... والآن بعد أن حصل كل ذلك تراه خائفاً...“ [فونتمارا ١٥٦].

كانت هذه التفصيلات الكاشفة بمثابة إضاءة حقيقية لسكان فونتمارا تشرح لهم بوضوح معلومات عن كيفية استغلال مشاعر الآخرين وكيفية تخويف الجميع. وقد كشفت رواية يبينو جوريانو عن الخوف داخل السلطة نفسها، وكأن هذا يمهّد الطريق للتمرد عليها.

ثمة أمر لاف للنظر في فونتمارا، هو أن كلاً من الرواة الأربعة الذين قدموا شهاداتهم خلال الرواية كانوا قد زاروا المدينة. تضمنت شهادة الراوي الزوج وشهادة الزوجة أجزاء عن المدينة التي زارها كل منها. كما ركزت شهادة كل من بطل بورتابيا والابن على سرد ما مر بهما في المدينة أساساً. ورغم ذلك فإن مظاهر تميز المدينة وما بها من تطور لم تلفت نظرهم بما فيها من اختلافات جوهرية عن القرية، ولم يتوقفوا إلا على ما بها سلبيات بالنسبة للوافدين إليها. وقد اقتصرت أحاديثهم عن الإيجابيات على بيان ما بها من وفرة المال وسهولة الحصول عليه مقارنة بعالم القرية. لم يقدم أيّ منهم تعليقاً واضحاً عن الحياة في المدينة واختلافها عن القرية. فخلال زيارة الزوجة للمدينة المحلية القريبة من فونتمارا، لم نر منها تعليقاً على أي شيء مختلف أو متميز في المدينة، كما لم ينشغل الزوج بما في المدينة من تطور، وربما كان هذا طبيعياً في زيارتي الزوج والزوجة لمدن محلية صغيرة وهي زيارات تتم بشكل سريع. ولكن ببينو جوريانو والابن، أقاما في المدينة لبعض الوقت ولم نرهما يتحدثان بإعجاب أو اهتمام عن مظاهر الحياة في المدينة. يقابل هذا - ويناقضه - ما نراه في الأرض من شغف القرويين الزائرين للمدن بما في المدينة من مظاهر رفاهية تختلف كثيراً عن حياتهم في القرية. ويمكن أن نرى مثلاً لهذا في زيارة دياب للمركز برفقة أخيه للعودة بالجحشة عند سفر الأخ - محمد أفندي - إلى القاهرة لتقديم العريضة التي جلبت المصائب على القرية؛ فدياب معجب أشد الإعجاب بالروائح والأطعمة في المركز [الأرض ١٣١]. كما نرى ذلك في أحاديث وتعليقات متفرقة لكثير من الشخصيات عن القاهرة على وجه الخصوص: يتكرر هذا في أحاديث عدد من الشخصيات في الرواية.

ينظر سكان القرية في الأرض إلى المدن عمومًا وإلى القاهرة على وجه الخصوص بإكبار وإعجاب واضحين، كما ينظرون إلى المقيم فيها أو الذاهب إليها باعتباره ذا شأن عظيم. ولا يُستثنى من ذلك إلا العمال الذين لفظتهم المصانع. فهذه وصيفة تخاطب الراوي قائلة: "... يا بحتكم يا للي بتروحوا مصر!!" [الأرض ١٩]. كما أن الشيخ يوسف يعتبر نفسه ذا شأن لأنه درس في الأزهر فأقام في القاهرة، وهو يرى أن المدينة العظيمة قد أصابها الهوان الذي أصاب كل شيء: "... لقد كانت مصر هي مصر بحق في الأيام الجميلة الماضية عندما كان الشيخ يوسف يعيش فيها يتعلم بالأزهر. . كان لا يذهب إليها إذ ذاك إلا الكبار أما الآن فقد هانت. . وأصبح أي إنسان يملك جنيهاً أو جنيهين يستطيع أن يسافر إليها ويقعد فيها" [الأرض ١٤١]. وتبدو قيمة القاهرة بالنسبة له مستقلة عن قيمة الأزهر، وعن أي عامل واضح لتحديد مكانة المدينة.

أما محمد أفندي فيعود إلى القرية متذكراً ما مر به في مصر ثم قال "يا سلام يا مصر! .. عمار يا مصر" [الأرض ١٧٨]. فهو يتذكر الأغاني والمناظر كما حمل إلى

أهله الحلاوة الطحينية في علبة خشبية ليتذوقوها. ورغم أن الحلاوة موجودة في دكان الشيخ يوسف إلا أنها تبدو أطعم وأكثر بهاءً إذا جاءت من المدينة الكبيرة التي وصفها عبد الهادي بأنها مدينة الحكومة في موضع سابق من الأرض.

لا نستطيع أن نعرف مصدر إكبار المدينة عمومًا والقاهرة على وجه الخصوص في الأرض، يمكننا أن نرجع ذلك إلى الأوضاع الاقتصادية؟ ولكنها كانت في انهيار واضح مع خراب الأعمال وتعطل المصانع وفقر الحال الذي عانى منه الجميع. يمكن أن يكون السبب في الأزهر وغيره من المنابر الدينية الرسمية أو الشعبية؟ ولكن هذا لا يظهر، بل يختفي حتى من حديث الشيخ يوسف لنفسه. لأن القاهرة هي مدينة الحكومة؟ ولكن الحكومة تجلب الخراب والدمار والفقر والظلم والقهر للبلاد والعباد. إن مكانة المدينة تبدو شيئًا نزل من السماء، قدرٌ غامض لا يعرف له أحد تفسيرًا.

والمدينة تعاني ما تعانيه القرية من سوء الحال مع حكومة صدقي وحزب الشعب. فالراوي الصغير يتحدث عن سوء الحال في القرية نقلاً عن أبيه، ثم يتحدث عن مشاهداته هو في المدينة: ”وكنْتُ أعرف من المدرسة أن كثيرًا من التلاميذ يقبلون بأحذية ممزقة وكنْتُ أرى زملائي في المدرسة المحمدية يدارون جوارهم المثقوبة في أحذيتهم. وكان بعضهم يسير بحذر حتى لا تبدو آثار الثقوب في البنطلونات...“ [الأرض ٣٢].

ولما كانت المدينة تشارك القرية بؤسها وسوء الحال الناتج عن الحكومة الظالمة التي كسرت رجل الجميع وظهورهم بسياساتها وضرائبها، فقد كان من الطبيعي أن يحدث تضامن بين المدينة والقرية، على خلاف ما رأيناه في فونتمارا. نجد في الأرض في نفس الوقت الذي تغلي فيه القرية من ظلم الحكومة وأعوانها، نجد المدينة تفور بالمظاهرات المضادة للحكومة والتي يشترك فيها العمال والطلبة وهذا ما يتحدث عنه الموظفون الكبار أمام أجزاخانة المركز بإعجاب [الأرض ٢٠٨]. كما أن الشيخ حسونة يقول للشيخ يوسف: ”... لو تشوف اللي بيحجرى في مصر لتشرح! دالي بيتعرضوا للرصاص في مصر كلهم صغار في السن وفاهمين تمامًا يا شيخ يوسف أكثر منا في سنة ١٩“ [الأرض ٢١٩]. ومن ثم فقد عمد رجال المركز المتحمسين إلى الحديث باسم أبناء القرية تطوعًا، فأرسلوا برقيات بأسماء أبناء القرية إلى الحكومة وإلى الصحف المعارضة لها في القاهرة. وقد اشترك الجميع في إفساد استقبال وزراء حزب الشعب عند حضورهم لزيارة الباشا في عزبته: اشترك في إفساد الاستقبال الجميع من فلاحين وعمال وموظفين ومسجونين.

تبدو البلاد كلها في تناغم تام لا يشوبه شيء إلا ما نقلناه عن إمكان سخرية أهل المدينة متمثلين في عمال الزراعة من الفلاحين على نحو ما قال علواني. وهذه الصورة تبدو وحيدة شاردة لا نرى لها مبررًا في سياق الأحداث نرجح أنها ما جاءت إلا من

تأثير محتمل لرواية فونتمارا.

٦ الدين ورجال الدين:

تمثل العلاقة بالدين ملمحًا مهمًا في رواية فونتمارا؛ فهو مجال لإبراز العلاقة بين المدينة والقرية، كما أنه مجال لبيان الطبيعة المتدينة لأهل فونتمارا بما يداخلها من سداجة في المعتقد. أهل فونتمارا مسيحيون متدينون يعيشون حياة قاسية لكنهم يرغبون خلالها في الحصول على خدمة دينية في كنيستهم المتداعية التي لا تفتح أبوابها إلا قليلًا نظرًا لعدم قدرتهم على الإنفاق عليها والاعتناء بها وبمن يمكن أن يتأق للخدمة فيها. يخبرنا الراوي الأول أنه "لم يكن في فونتمارا قسيس. فإن المساعدة المالية التي كانت الكنيسة تهبها، لم تكن كافية حتى يمكننا تعيين قسيس. ومن ثم كانت الكنيسة تفتح فقط في الأيام العظيمة وفي الأيام المقدسة عندما يقدم دون أباشيو من المدينة المحلية كي يلقي محاضرات الوعظ، أو يتحدث في حزن عن حياة المسيح" [فونتمارا ٣٠]. وبالتالي فنحن نرى أناسًا محرومين من الخدمة في الكنيسة معظم أوقات السنة. وقد حكى الراوي كيف ألح أهل فونتمارا في طلب مساعدة رئيس الكنيسة في أن يكون لكنيستهم الصغيرة قسيس دائم، "... وبعد عدة أيام أخبرنا أن مطلبنا قد تحقق وإنه من حسن اللياقة أن نقوم بالاستعداد والاحتفال بمقدم قسيسنا الأول. ومن الطبيعي أنا بذلنا طاقة مجهودنا كي نستقبله أعظم استقبال..." [فونتمارا ٣٠ - ٣١]. وأوضح كيف قام أهل فونتمارا بالاهتمام بكل التفاصيل الصغيرة حتى في الطريق إلى الكنيسة، ثم خرجوا للاحتفال بمقدم القسيس الجديد عندما جاء الموعد المحدد. وصل الموكب إلى القرية فانقسم الناس فريقين احتل كل منهما جانبًا من الطريق كي يرحب بالقسيم، "وفي تلك اللحظة انقسم جميع أهل المدينة إلى فريقين تقدم القسيس الجديد منا.. ولم يكن سوى حمار عجوز مزين بالملابس المقدسة، وقد حمل بالحجارة والأثقال" [فونتمارا ٣١]. ففي هذا المشهد نرى كيف تغلبت طبيعة أهل المدينة على رئيس الكنيسة فسخر من أهل فونتمارا هذه السخرية اللاذعة والمهينة.

ورجال الكنيسة لا ينصفون أهل فونتمارا ولا يدافعون عنهم فيما يلزمهم من ملومات: فخلال الرحلة إلى مدينة أفيزانو لحضور لقاء حاشد مع السلطات والحكومة، طُلب من أهل فونتمارا أن يحملوا راية لهم. لم يجد أهل فونتمارا غير راية القديس روكو ينزلونها من أعلى الكنيسة ليذهبوا بها إلى اللقاء. وقد تسببت هذه الراية في سخرية الناس منهم في مدينة أفيزانو، كما أصر المسئولون عن التنظيم أن يصادروا الراية التي لا تناسب الحدث: "وقامت ثورة عند مدخل أفيزانو بسبب علمنا. وإذ كان هناك جماعة من الشبان في قمصان سوداء، واقفين في وسط الطريق، وهم ينتظروننا، وسرعان ما طلبوا

منا في حزم أن نعطيهم العلم. ولكننا رفضنا لأنه كان الوحيد الذي نمتلك... وفجأة رأينا دون أباشيو في شكله البدين، يتقدم منا وهو يلهث أنفاسه، وقد غمره العرق. وسار مصطحبًا بعض ضباط الشرطة. وما كان من أحد يرتاب في أنه - وهو القسيس - سيقف للدفاع عن القديس روكو. ولكنه وقف موقفًا مخالفًا“ [فونتمارا ٩٣ - ٩٤]. فقد أجبرهم أباشيو عن التنازل عن الراية التي يعرفها ويعرف قيمتها بالنسبة لهم. ولم يفعل هذا بأسلوب لين وإنما بغضب. بل واتهمهم بسوء النية: ”أوتظنون أن هذا وقت الكرنفال؟ أهذه طريقتكم في تسوية العلاقات بين الكنيسة والحكومة؟ إلام يا أهل فونتمارا ستتخطون في سبلكم الملتوية المتصلة؟“ [فونتمارا ٩٤]. ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ وصف دون أباشيو بالبدانة التي قد تتناقض مع الزهد الذي يُفترض أن يتحلى به رجل مثله.

وقد أوردنا قبل ذلك نص كلام بيبينو جوريانو عن الخوف الذي عم المدينة كلها والذي شمل البابا نفسه. لقد صار البابا جزءًا من السلطة وصار يشاركها خوفها من الناس. كما أنه صار يحصل على الأموال من الحكومة ليني المنشآت ويطور من مقره. وكان الفلاحون يرون أن البابا يهتم بعلاقات متينة مع ذوي السلطة والثروة، وأنه يقدمهم على الفلاحين. وكانت علاقة البابا بالسلطة قد شهدت تحولاً كبيراً بعد أن توصل الطرفان إلى اتفاق سلام احتفل به الكل، بمن فيهم أهل فونتمارا الذين علموا أن هذا الاتفاق سوف يكون في صالح الفلاحين وأنه مقدمة لخير كبير سيصل إليهم. ونتيجة لهذا السلام، رأي ميشيل زومبا حلمًا عجيبيًا ”إنه حلم رأيته في الشتاء الماضي. ولقد أفضيت به إلى دون أباشيو وقد أمرني آنذاك ألا أخبر أحدًا... رأيت البابا يتحدث إلى المسيح في الحلم. قال المسيح: احتفالاً باختتام هذا السلام والأمان فإنه من الأوفق أن توزع أرض فشينو بين الفلاحين الذين يزرعونها. فأجاب البابا: أ.. يا سيدي، إن الأمير تورلونيا لن يوافق على أن... لا تنس أن الأمير تورلونيا يعطي منحًا جلييلة إلى صندوق القديس بيتر. وقال المسيح: احتفالاً باختتام هذا السلام والأمان، فإنه يكون من الأوفق أن نعفي الفلاحين من دفع الضرائب. فأجاب البابا: أ.. يا سيدي، إن الحكومة لن توافق على ذلك ولا تنس أنه بمساعدة الضرائب التي يدفعها الفلاحون فإن الحكومة قادرة على دفع ألفي مليونًا من الليرات إلى صندوق القديس بيتر. وقال المسيح: احتفالاً باختتام هذا السلام والأمان، فإنه يكون من الأوفق أن توزع محصولاً طيباً على جميع الفلاحين وكذا على أصحاب الأراضي الصغار. فأجاب البابا: أ يا سيدي، لو أن أثمان محصولات الفلاحين تعادل تكاليف الإنتاج الزراعي، ولا تنس أن رؤساء الكنائس والأساقفة هم في الآن عينه من كبار ملاك الأراضي. وحزن المسيح كثيرًا لأنه غير قادر على أن يعمل شيئًا للفلاحين، ودون أن يلحق ضررًا بناس آخرين.“ [فونتمارا ٢٤ -

٢٥]. ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن أهل فونتمارا المتدينين يلاحظون العلاقة بين الكنيسة والسلطة، وكيف أن رجال الكنيسة أنفسهم صاروا ملائكة للأراضي الزراعية، بل ومن كبار الملاك. وقد بدا هذا الحوار بين المسيح والبابا دالاً على تمييز غير واع لدى الفلاحين بين الدين وبين رجال الدين. وقد انتهى الأمر أن رأى المسيح والبابا حياة الفلاحين البائسة وما بينهم من تشاحن وبغض دفع البابا أن يلقي عليهم هبة تتمثل في سحابة من القمل قائلاً: "خذوها يا أبنائي المحبوبين. وعلموا أنفسكم. وفي أوقات البطالة سيكون لديكم شيء يحمي أفكاركم من الإلحاد والكفر" [فونتمارا ٢٦]. هكذا كان حلم ميشيل زومبا الذي رأى فيه رجال السلطة - ممثلين في هون بلينو - سخرية من السلطة فانتقموا منهم تبعاً.

وهذا الاستخدام الساخر ما نراه في مشهد العزاء في رواية "الأرض" عندما حضر كل من المأمور ومحمود بك إلى العزاء فظل القارئ يردد نص الآية التي تقول "فانظر إلى حمارك" في توظيف ساخر لنص الآية من شخص كليهما.^(١٥) ولكن السخرية هنا كانت مقصودة من قبل الشيخ إبراهيم القارئ المشهور واستقبلها المعزون على هذا النحو وتابعوه بالابتسام الساخر من الرجلين.

في مقابل هذا التوظيف الساخر، نرى نوعاً آخر من توظيف الدين لإخضاع الناس عموماً والفلاحين على وجه الخصوص. فقد تكرر في الأرض الحديث عن طاعة ولي الأمر التي تعلمها العمدة خلال سنوات دراسته في الأزهر. [الأرض ٩٣]. كما أن الشيخ يوسف نفسه، عندما كان يسعى للحصول على منصب العمدة الشاغر بعد وفاة العمدة قد عمد إلى حث الشيخ الشناوي على تأكيد ضرورة طاعة أولي الأمر: "أيوة يا شيخ شنواوي. . أيوة يا سيدنا. . ابقى زعق شوية وانت بتخطب في الحقة دي. . أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم. . يعني العمدة. . هه. . يعني اللي ما يطاوعنيشي وأنا عمدة يبقى كافر وابن كافر كمان" [الأرض ٣٧٠]. وما أخطر أن يُتهم شخص بالكفر في مجتمع مفعم بالعواطف الدينية، حتى لو لم يكن يهتم بأداء الفرائض.

وكان كثير من أهل القرية في الأرض لا يهتمون لأداء الصلوات مع الشيخ الشناوي، وربما بمفردهم رغم وجود مصلى في حوض الزراعة المعروف بحوض الجسر في الرواية. وقد تكررت دعوة الشيخ الشناوي للناس بضرورة خطف ركعتي الصلاة في جماعة قبل الاتجاه

(١٥) رأى عبد المحسن بدر في مشهد العزاء قدراً كبيراً من المبالغة والافتعال الذي لا يناسب السياق: وإذا كان من المقبول أن يصادف قدوم المأمور ومحمود (بيه) للعزاء في العمدة قراءة المقرئ لآية "وانظر إلى حمارك" وأن تتكرر قراءة نفس هذا الجزء من الآية مرة ثانية وثالثة فإن من الصعب قبول أن يظل المقرئ يكرر هذه الجملة، بعد أن ظهرت البسمات الساخرة على الشفاه. وأن يظل على تكرارها حتى بعد أن طلب منه محمود بيه أن يتجاوزها. ولا ينتهي الأمر إلا بعد أن يتحول سراق العزاء إلى مناظرة سياسية بين المأمور ممثلاً لحزب الشعب، ومحامٍ من المدينة يمثل حزب الوفد. عبد المحسن بدر: الروائي والأرض. ص: ١٧٦.

إلى أعمالهم، وكان الفلاحون يتملصون بحجة ضيق الوقت أو وجود ماشيتهم معهم. وليست في الرواية إشارة إلى رجل يواظب على الصلاة باستمرار عدا الشيخ حسونة، إضافة إلى الشيخ الشناوي طبعًا.

أما الشيخ الشناوي فهو مؤذن القرية وخطيب مسجدها الذي يدعو الناس دوماً إلى الصلاة وإلى اتباع تعاليم الإسلام. وهو لا يمل دعوة الناس إلى الصلاة ولا تحذيرهم من عذاب النار، واتهام المخالفين له بأنهم كفار أو أنهم يخوضون: أي يخوضون في الدين على غير حق. وفي مقابل صرامة الشيخ الشناوي مع أهل البلد فإنه عندما يقف إزاء ذوي السلطة لا يفعل نفس الشيء وإنما يكتفي بالصمت. هذا ما حدث مثلاً عندما سمع من العمدة كيف رتب الأخير للقبض على محمد أبو سويلم ضمن المتهمين في جريمة لم يرتكبها لأن محمد أبو سويلم لا يظهر له الاحترام، فأصبح العمدة يتأمر ليلصق به التهم، الواحدة تلو الأخرى. هذا ما حكاه الشيخ الشناوي، ”ولم يكد الشيخ الشناوي ينتهي من رواية هذا الكلام حتى ثار الشيخ يوسف، وسأل الشيخ الشناوي عما قاله للعمدة ردًا على كل هذه الترتيبات، ومحاولات الإيذاء... فأجاب الشيخ الشناوي في طيبة بأنه لم يقل له شيئاً“ [الأرض ٢١٦]. وهذا ما أثار حفيظة الشيخ يوسف الذي اتهم الشيخ الشناوي بالتناقض وبالميل للعمدة وتجاهل الكبائر في مقابل ما يراه من صغائر الذنوب.

في كل الصور السابقة لرجال الدين، نرى تشابهاً واضحاً بين الروائيتين. لكننا نلمح قدرًا أكبر من التمرد على الدين في الأرض خلال أحاديث أهل القرية عن أن الدين لا يستطيع أن يقدم حلاً لمشكلاتهم وأن عليهم البحث عن الحلول بأنفسهم وليس بقراءة الآيات والأوراد، ولا بالصلوات. كما نجد ذلك في حديث الراوي الصغير تعليقاً على قول أم وصيفة: ”يا رب. . لنا رب“ فقد علق قائلاً: ”وازدحمت نفسي بمشاعر عديدة مختلفة. . وفكرت في ربما هذا متى يملأ القاعة بالطحين. . ويجود عليّ بالبدلة الجديدة“ [الأرض ٣١٧].

٧ الرواية:

تضمنت رواية فونتمارا أربعة رواة قَدَّمَ كل راوٍ ما يعرفه وما رآه بنفسه. وعندما انتهى ما يعرفه وجدنا ينقل الكلمة لراوٍ آخر ليحكى الجانب الذي يعرفه. وقد بدأ الراوي الزوج برواية بداية الأحداث ثم ترك لنا زوجته تحكي الجزء الذي حضرته هي وباقي النساء عند التوجه إلى المدينة، حتى إذا ما انتهى وجدناها تعيد الكلمة لزوجها ليحكى هو ما عايشه مع رجال القرية في مرحلة حفر القناة الجديدة التي تسرق ماء التربة. واستمر هو يحكي توجه الرجال إلى مدينة ”أفيزانو“ بأمر السلطة وترك الزوجة

تحكي ما فعله الفاشيون بنساء القرية في غياب الرجال. وبعد أن استعاد الزوج الكلمة عاد ليحكي رد فعل الناس معطيا مساحة صغيرة نسبيا ولكنها كاشفة ودالة لرجل لم يتعرف عليه أهل القرية في البداية واتضح في النهاية أنه "بيينو جوريانو" المعروف باسم بطل بورتايبيا. روى بطل بورتايبيا حكايته الطويلة الفاضحة لممارسات السلطة وطريقتها في صناعة الصورة الذهنية لها ولأنصارها ومعارضها. وقد اقتصر الجزء الخاص بصوت بيينو جوريانو على استرجاع تفاصيل تجربته في روما خلال خمسة وثلاثين عامًا. وكان صوت جوريانو حاضرًا بصورة غير مستقلة داخل كلام الراوي الأول. وبعد ذلك ترك الكلمة مرة أخرى للراوي الرئيس وهو الزوج الذي استمر في الحكى حتى سفر ابنه مع براردو فيولا إلى روما بحثًا عن عمل، فترك الكلمة لابنه الذي حكى عن لقاء الرجل الغامض وكيف أنقذه براردو وضحى بنفسه من أجل حلم الاتحاد والتمرد في وجه الفاشيين. وما إن عاد الابن إلى القرية حتى استعاد الراوي الرئيس مكان الراوي حتى النهاية. ويبدو الجزء الخاص بما رواه بيينو جوريانو خارج مسار الأحداث التي عالجتها **فونتمارا**، إلا أنه قدم إضاءة كاشفة للسلطة بلسانه دون افتعال أو ادعاء. وكان الرواة الثلاثة المكونين لأسرة واحدة يركزون على رواية ما حدث لهم ولقريتهم وأهلها خلال صيف واحد - ربما كان أخيرًا - إلى مستمع متخيل قد يكون هو القارئ نفسه. ومن ثم كانوا محددين جدًا في استرجاع ما يريدون إخبار هذا المتلقي به.

ويمكن أن نرى أن كل راوٍ ركز على ما حضره، كما كان صوته مستقلاً إلى حد كبير في التركيز على تفاصيل بعينها مما يراه ويرويه. فقد كان الراوي الأول مشغولاً بالحديث عن نظام العمل وشقاء الحياة والنقود، وهي أمور لم تهتم بها الزوجة في روايتها وإنما ركزت على وصفها لطبائع النساء وعالمهن وأعمالهن، كما اهتمت بوصف الملابس والروائح أكثر من غيرها. فقد قدمت الزوجة وصفًا مفصلاً لملابس المحامين خلال الاحتفالات: "ومن المعلوم أن المحامين في جزئنا هذا من العالم، يلبسون سراويل خاصة يذهبون بها إلى الحفلات. وهذه السراويل خاصة بالحفلات الموسيقية وحفلات الأكاديمية. وهي بدلاً من أن تكون ذات صف واحد من الأزرار، فإنها ذات ثلاثة صفوف وحتى يمكن أن تنسق تدريجياً مع حجم البدن... [فونتمارا ٥٥] ولم تكن الملابس ولا مناظرة الطعام ولا روائح الطعام مما يتوقف عنده غيرها من الرواة. كما أن الابن ركز على ما يشغله في الرحلة إلى روما ولم تَعْنِه المدينة وما بها من مظاهر مختلفة عن القرية إلا في نظام العمل وقدرة أهل المدينة على الإنجاز، وهذا ما سبق أن أشرنا إليه.

في **الأرض**، نجد الرواية تبدأ براوٍ صغير أنهى الدراسة الابتدائية في القاهرة وعاد لقضاء العطلة في القرية، ليحكي لنا قصة قريته خلال صيف واحد أيضاً. ولكن هذا

الراوي يحكي لنا بعض التفاصيل خلال الفصول الثلاثة الأولى من الرواية ثم يختفي مع نهاية الفصل الثالث وحتى نهاية العشرين، ثم يعود للظهور مرة أخرى فجأة بعد أن أطلق أبوه سراحه وسمح له بالخروج من البيت مرة أخرى. رأى كثير من النقاد أن الراوي يمثل عيباً كبيراً في الرواية، وأن هذا نتج عن عدم التخطيط المسبق للعمل والشروع في نشره منجماً في الصحف قبل أن يجد الوقت لمراجعته.^(١٦) ولكن ثريا العسيلي لم تشأ أن تشير إلى هذا بشكل سلبي واكتفت بأن قالت: ”ويكتشف الشرقاوي خطأ اعتماده على هذا الراوي الذي يمثله صبيًا، في عرض الآراء، والأحداث، والشخصيات بمنطق الصبي، والتعقيب، عليها من خلال ذلك المنطق، الذي تحكمه ظروف سنوات عمره القليلة، وثقافته المحدودة، وخبرته التي لا بد أن تبدو أكبر من سني عمره، لذا فقد استعاض عن دوره الذي اختفى بعد المقدمة، فقام هو كمؤلف بتحريك ورصد الشخصيات، والأحداث“^(١٧) لكن هذا لا ينفي سوء التخطيط ولا يمكن أن نفهم القول إن المؤلف هو الراوي.

وتمضي أحداث الرواية في الفصول المحصورة بين الفصل الرابع والفصل العشرين دون راوٍ صريح معلن. لا يعني هذا غياباً تاماً للرواة، وإنما نجد أن هناك راوياً يتسرب صوته بين الحين والآخر في النص: ففي الفصل الثاني عشر نجد الراوي المجهول العارف بكل شيء في القرية وفي نفوس أهلها يحكي عن انتظار محمد أفندي لدياب في وقت تأخر فيه دياب دون سبب مفهوم ”وفي الحق أن دياب قد تأخر مضطراً عن محمد أفندي على الرغم من أنه كان يجري على طول الطريق في لهفة ليستقبل أخاه..“ [الأرض ١٦٨]. وأخبرنا الراوي أن سبب الاضطراب هو لقاء خضرة. وقد تسرب الصوت مرة أخرى في نهاية الفصل الخامس عشر عندما ظهر الراوي بصوته ليؤكد سبب الفرح التي عمت القرية وارتفاع أصوات الزغاريد ”صحيح .. صحيح! لقد عاد الرجال!“ [الأرض ٢٣٨].

يتسرب هذا الصوت في غياب الراوي الصغير كما يتسرب إلى الرواية في حضور راويها الأصلي. ففي بداية الرواية نجد الراوي الصغير يصف وصيفة على النحو التالي: ”وفي بطء واعتزاز وحذر فتحت الجلباب من على صدرها ثم وضعت قطعة النقود تحت نهداها. . وارتمت نظراتي على صدرها الوضيء الساطع ومنبت نهداها. واختلجت وشعرت بلذة غريبة تدب في كل بدني . .“ [الأرض ٣١]. فقد كان الراوي قادراً على أن يميز تفاصيل جسد وصيفة بوضوح في الظلام الدامس في تلك الليلة التي التقى فيها وصيفة عند الساقية.

(١٦) هذا ما رآه كل من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم في كتابهما: في الثقافة المصرية.

(١٧) ثريا العسيلي: أدب عبد الرحمن الشرقاوي. ص: ٢٨٩.

ويبدو الراوي الصغير في الأرض مثيّرًا للدهشة في حضوره ثم اختفائه ثم عودته مرة أخرى، إضافة إلى قلة المعلومات عنه وعن أهله والمحيطين به. ومن العجيب أن يكون هذا الراوي من طلاب المدارس في القاهرة في زمن كانت فيه أسرته مقيمة في القرية وكانت في القرية مدارس كتلك التي يعمل فيها محمد أفندي. وكان هذا الراوي الصغير المقيم في المدينة أكثر انتباهًا لتفصيلات المدينة عن رواة فونتمارا. فهو في ختام الرواية يركز على حركة الناس والزحام في القاهرة التي وصل إليها بالقطار مع أخيه ليلحظ زحام الناس والألوان:

"ولكنني كنت وأنا جالس إلى جوار أخي أفتح عيني على طرقات القاهرة، مفتونا بالضجيج، والعربات تجرها الحمير، والسيارات الفاخرة المتعددة الألوان، والنساء في الفساتين، والرجال بالبدل، والترام، والحفاة في جلابيب غير زرقاء . . والعساكر!!.. وهزتي المراني العديدة التي طال عنها غيابي أربعة شهور من الصيف وكأني أرى لأول مرة مدينة لم أعرفها من قبل.

وازدحمت عيني بعشرات الآباء والمهات والأولاد الصغار ينتقلون بين المتاجر" [الأرض ٣٨٨].

ولا يمكن أن نتجاهل انبهار الراوي بالألوان والزحام ولا يمكن أن نمر دون ملاحظة الآباء والأمهات المتنقلين بين المتاجر عكس الصورة التي ظل يرددها عن سوء الحال في المدينة في عهد حكومة صدقي. ولا يسعنا هنا إلا أن نصف الراوي في الأرض بعدم الانضباط الناتج عن عدم التخطيط المسبق للعمل قبل نشره منجمًا في الصحف.

٨ الأرض:

منذ صدور رواية الأرض في خمسينيات القرن العشرين، وهي محط اهتمام النقاد والباحثين المعنيين بالرواية العربية وتاريخها. وكل باحث يجد في الرواية جانبًا مهمًا يستحق الإشادة وجوانب أخرى تستحق النقد. رأي محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس قيمة الرواية في قدرتها على تصوير الشخصيات الصميمة وإنطاقها بلغتها الحية، بداية من عبد الهادي الشاب القوي السامق كشجرة، الشامخ بكبرياء الثورة، ووصيفة الفلاحة الشابة الساذجة الجميلة "ومحمد أفندي (المدرس بالمدرسة الإلزامية) الطيب المغرور، المثقف الجاهل، الذي يتيه بين الناس بتفوقه ... ومحمد أبو سويلم (شيخ الخفر السابق) الذي تتمثل فيه خشونة الفلاح المصري، وغيرته على الشرف، وصبره على الظلم وأنفته منه؛ والشيخ الشناوي فقيه القرية، الدعي المنافق الذي يتزلف إلى الحكام، ويستغل الدين ستارًا لقضاء حاجاته ومآربه الشخصية؛ وخضرة العاهرة، التي تبيع جسدها كل يوم لشباب القرية لقاء كوز من الذرة أو بعضًا من ثمار الخيار، ولا تنفك تحدث بنات

القرية عن أسرار الحياة الجنسية وتعايشتهم بالإشارات المفضوحة؛ وعلواني المعتز بأنه عربي، الشريد البائس الذي يعيش من حراسته حقول بعض الملاك، والذي يحرص على شرب الشاي... وهي كلها نماذج في طابعها العام واضحة الأشواق، متميزة القسما، لا يمكن أن تختلط في ذهنك على ما بينها من قرب ووشيجة. وتلك هي عبقرية الشرقاوي في الإبداع الفني...“ (١٨)

أما عبد المحسن بدر فأرى أن قيمة الرواية تتضمن ما أشار إليه سابقاه لكنها تتضمن عناصر أخرى أيضاً. فهو يرى أن الشرقاوي ”... قدم في روايته رؤية مغايرة لرؤية المؤلفين السابقين عليه، وأنه تعرض لمشاكل حقيقية تواجه القرية، وتعامل مع القرية كواقع ووجود، لم يسقط عليها مشكلته أو أفكاره، وأنه تعامل مع الفلاحين كبشر لا كمجرد أدوات...“ (١٩)

وقد اتفقت سماح سليم مع النقاد العرب في حديثها عن أهمية الرواية وقيمتها، ثم أضافت بعداً آخر يتصل بلغة الحوار التي برزت فيها عناية فائقة بالعامية مرة أخرى بعد فترة توقف فيها كتاب الرواية عن استخدام العامية في الحوار. وحاولت في الفصل الخامس من كتابها عن تاريخ الرواية المتعلقة بالريف والفلاح أن تبرز قيمة اللغة في الرواية حيث تقف بطبيعتها اللغوية وموروثها الشعبي في مقابل ثقافة الفصحى المرتبطة بالسلطة والتراث الرسمي. (٢٠)

يمكن أن نضيف إلى المزايا السابقة، بناء على المقارنة مع فونتمارا، أن الأرض تضمنت - على نحو ما سنرى - تميزاً في تمثيل كثير من الأحكام التي بدت عامة في فونتمارا، فصار لها بعد حي وطبيعة ملموسة ومواقف معيشة تبرز أهمية المقولات التي جاءت في الرواية. وإن كانت فونتمارا قد تركت بصمات على الأرض أدت إلى بعض المزالق التي أشار إليها النقاد.

وجه النقد عدداً من الانتقادات كان أولها ما جاء في عمل العالم وأنيس حيث أجملا عيوب الرواية في: اختفاء الراوي، وعدم الاهتمام بالأبعاد المتعلقة به؛ تحولات شخصية الشاويش عبد الله المفاجئة؛ ظهور عم كساب في نهاية الرواية. ويمكن أن نجملها كلها في تصورهما لطبيعة نشر الرواية قبل اكتمالها. (٢١)

أرجع عبد المحسن بدر عيوب الرواية إلى أربعة مآزق في رؤية الشرقاوي هي: التزام

(١٨) محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس: في الثقافة المصرية. ص: ١٣٠.

(١٩) عبد المحسن بدر: الروائي والأرض. ص: ١٤٢. اتفق سيد عبد الله علي (سيد السيبي) مع عبد المحسن بدر في الإشادة بالرؤية الواقعية التي رآها في مقابل النموذج الرومانسي للقرية. سيد عبد الله علي: أرض الشرقاوي - محتوى الشكل والواقعية المأزومة. القاهرة. مجلة أدب ونقد. عدد ١٠٤. إبريل ١٩٩٤. ص: ٧٠.

(٢٠) Samah Selim: The Novel and the Rural Imaginary in Egypt 1880-1985. New York and London. Routledge Curzon. 2004. Chapter five.

(٢١) محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس: في الثقافة المصرية. ص: ١٣٧ - ١٣٩.

المؤلف بالحقيقة التاريخية على حساب الحقيقة الفنية؛ التمسك بأهمية ملكية الأرض مع اشتراط أن تكون محدودة وأن يكون صاحب الأرض عاملاً في أرضه؛ الموقف من الروايات السابقة، فرغم أنه تميز في رأيه عنها، إلا أنها سيطرت على لغته في الوصف؛ التركيز على الأزمة وفق تصور الشرقاوي أن الأزمة هي الأهم.^(٢٢) ولكننا يمكن أن نختلف مع المأزق الرابع والأخير في حديث عبد المحسن بدر؛ فالأرض لم تركز على الأزمة وحدها وإنما امتدت إلى ما هو أبعد من الأزمة.

تدور أحداث رواية الأرض في قرية من قرى دلتا مصر خلال أحد أعوام حكم حزب الشعب في ثلاثينيات القرن العشرين. وتجري الأحداث كلها خلال صيف واحد هو مدة العطلة الدراسية للراوي الصغير العائد إلى قريته مع إخوته لقضاء العطلة هناك. وهذا المدى الزمني مساوٍ تماماً للمدى الزمني في فونتمارا حيث دارت الأحداث خلال صيف أحد الأعوام القريبة من هذا التاريخ. وإذا كان الإطار الزمني في فونتمارا مناسباً لطبيعة العمل حيث بدأت الأحداث وانتهت خلال ذلك الصيف، فإن هذا الإطار الزمني في الأرض بدا تعسفياً وغير دقيق. أدى التحديد التعسفي للزمن الداخلي في الأرض إلى استيعاب عدة مظاهر للصراع بين السلطة من ناحية والفلاحين من ناحية أخرى. وخلال الرواية، عاشت القرية صراعين ضد السلطة لسببين مختلفين هما إنقاص دورة الري ونزع ملكية بعض الأراضي من أجل إنشاء سكة زراعية جديدة رآها الفلاحون لا داعي لها ولا حاجة إليها مع وجود بديل. في مقابل ذلك ركزت فونتمارا على أزمة واحدة هي أزمة الماء مع استدعاء كل الأزمات الأخرى في الخلفية.

إلى جانب الأزميتين اللتين مرت بهما القرية، تعرض الرواية قصة صراع ثالث للفوز بـ "وصيفة" زوجة لأحد المتنافسين عليها. وقد تنافس على الزواج منها كل من محمد أفندي المدرس، وعبد الهادي الفلاح القوي الناجح، وظهر منافس ثالث عند نهاية الرواية هو عم كساب الذي لم نره قبل الفصل الأخير. تبدو صورة وصيفة هنا قريبة من صورة ألفيرا الحسناء التي تنافس الرجال للفوز بها، لكن براردو فيولا القوي فرض كلمته عليهم جميعاً. لعبت ألفيرا دوراً حاسماً في الأزمة الأساسية للقرية بموتها. عندما ماتت ألفيرا تحول حبيبها براردو فيولا إلى التضحية من أجل الآخرين وخصوصاً الرجل الغامض الذي كادت السلطة تتمكن منه. أما وصيفة فكانت على هامش الصراع الأساسي بين السلطة والفلاحين.

تبدأ الرواية بفقرة غريبة تتحدث عن الضرائب الكثيرة التي تفرضها عليهم الحكومة فتثقل كاهلهم وإذا عجزوا عن سدادها استولت الحكومة على أرضهم وانتزعتها منهم. يقول الراوي الصغير: "أنا أعرف أن القلائل الذين يملكون أرضاً في القرية، كانوا وحدهم

(٢٢) عبد المحسن بدر: الروائي والأرض. ص: ١٣٦ - ١٤١.

يشغلون بالضرائب المتجمدة على الأرض، وبالصراف الذي يطالبهم بمال الحكومة، ويهددهم دائماً بالحجز على الأتيان... على أن بقية الرجال والفتيان لم يكن يعينهم أن تنتزع الأرض من أيدي الملاك أم تظل، ما دام كل واحد منهم يجب أن يبحث آخر الأمر عن حقل يعمل فيه طول النهار.. وفي الحق أنهم يحاولون أبداً أن يخفوا ضحكاتهم الشامتة كلما شاهدوا الصراف يدخل - ومعه خفير ببندقية - إلى بيت أحد الذين يملكون أرضاً في القرية“ [الأرض ٤]. تبدو الكلمات السابقة مفارقة لمجمل أحداث الرواية التي خلت في معظمها من أية أزمة متعلقة بالضرائب سوى الكلام الإنشائي غير المتصل بالأحداث. كما أن أهل القرية أظهروا تضامناً لا يمكن إنكاره إزاء ما يلم ببعضهم. يضاف إلى ذلك، أن نزاع الأرض من أصحابها تم دون حاجة إلى ضرائب أو التزامات، وإنما لصالح إنشاء سكة زراعية تخدم الباشا في قصره الجديد وترتبط بيته بالمدينة.

تبدو الأزمة المتعلقة بإنقاص دورة الري في الأرض غير مؤثرة في الزراعة، على عكس ما نجده في فونتمارا؛ فالزراع لم يتأثر بنقص المياه رغم ما أدى إليه من صراعات فيما بين الفلاحين. ومن هنا يمكن أن نرى أن أزمة المياه وإنقاصها في الأرض لم تكن أزمة أصيلة. وكما جاء هون بلينو ليأخذ من الناس ماءهم على دراجة، فقد حضر اثنان من الهندسة الزراعية على دراجتين أيضاً: ”... واقتربت المهمة وأصبحت أصواتاً واضحة تلتقط منها الأذان كلمات كاملة تجري إليها بسرعة... واتضح في الظلام شكل بسكليت يجري ومن ورائها بسكليت آخر...“ [الأرض ٥٤]. ولكن رجال الهندسة الزراعية جاءوا لتنفيذ قرار سبق أن أرسلته الإدارة للعمدة وهم يتحققون منه فقط. لم يكن الأمر بحاجة إلى عريضة يستغلها القائمون على الري في ظل حكومة ديكتاتورية تفعل ما تريد دون اكتراث لمعارضة. فعبد الهادي يقول لعلواني: ”...دا الحكومة كاسرة رجلنا يا عم...“ [الأرض ٥٢]. وموظف الهندسة الزراعية يحسم الأمر قبل الدخول في نقاشات لا جدوى منها: ”... كلام الحكومة أهه كده.. دورة الري في الزمام هذا تكون خمس أيام فقط لا غير.. وبعد كده لا فيه ري من البحر ولا من الترعة. . بلاش مناكفة بقى...“ . وهنا أدرك عبد الهادي العلة بسرعة ووضوح: ”...مين دا اللي ياخذ منا خمسة أيام من العشرة بتوعنه.. ليه.. وبقية المية رايحة فين؟ هه.. بقى يبطلوا السواقي هنا ويقفلوا الترعة الكبيرة هناك؟ .. ليه بقى.. مين اللي فوقنا حياخد الميه.. المخروبة أرض الباشا اللي اشتراها جديد وما تسواش كلب ياكلها.. يا سلام يا سلام؟؟...“ [الأرض ٥٧]. فهم عبد الهادي الأمر من أول لحظة ودون حاجة إلى نقاش أو بحث أو تحرر عن المستفيد. وهذا ما فهمه جميع الفلاحين خلال وقت قصير: ”وفي تلك الأيام بالذات كان أهل القرية جميعاً قد عرفوا أن مياه الأيام الخمسة

أخذت منهم لتعطى لأرض الباشا القريبة من المركز عاصمة الإقليم" [الأرض ٨٣].
شعر الفلاحون بالفرح من قرار الهندسة بإنقاص دورة الري من عشرة أيام إلى خمسة فبادروا يفكرون في حل للأزمة وسبيل للمواجهة. وهنا اجتمع الفلاحون للبحث في الأمر. اقترح البعض الحديث إلى العمدة، لكن الشيخ يوسف وعبد الهادي ومحمد أبو سويلم رفضوا الفكرة رفضاً قاطعاً. وقال محمد أبو سويلم: "...أنه لن يستشير العمدة ولن يشركه مع رجال القرية.. في أمر يهم القرية.. فهذا العمدة يعرف أن الحكومة أمرت بإنقاص مواعيد الري من عشرة أيام إلى خمسة... ولكنه لم يقل لأحدد في القرية.. ولم يطلق خادم الجامع بطلبة... لينبه القرية.. كما تعود في مثل هذه الحالات..." [الأرض ٦٩].
جاء الاقتراح الثاني من محمد أفندي "... أن يكتب عريضة إلى وزير الأشغال وقال إن محمود بك يستطيع أن يحملها إليه فهو من معارفه.. وربما استطاع أن يقابل بها رئيس الحكومة إسماعيل صدقي نفسه" [الأرض ٧٠]. ورغم الرفض الأول إلا أن الفكرة راقت الحاضرين فكتبها محمد أفندي بعد إشادة عبد الهادي "... كده التسارييف يا جدع.. وحط فيها كلمتين من اللي بتقولوهم لبعض يا خوجات المدرسة..." [الأرض ٧٠]. ولم يعترض أحد هذه المرة حتى محمد أبو سويلم، وأخفى الشيخ يوسف اعتراضه على كتابة محمد أفندي للعريضة لا على كتابة العريضة في حد ذاتها، فقد رأى أنه أجدر من محمد أفندي. لكن الشيخ يوسف لم يصرح باعتراضه الأقرب إلى الحسد والغيرة.
لم يعترض على العريضة إلا محمود بك، فقد قال العمدة "... إن محمود بك ثار عندما قرأها واتهم لغتها بقلّة التهذيب ووعد البية أن يكتب بنفسه عريضة أخرى..." [الأرض ٧٩]. نتج عن هذا التحول في مسار العريضة حدوث الأزمة الثانية المتعلقة بنزع الملكية.

ترك الفلاحون أمر العريضة ومخاطبة الحكومة لمحمود بك والعمدة ومحمد أفندي بعد أن أصر كل من محمد أفندي والشيخ الشناوي على ضرورة الحديث مع العمدة، وانصرفوا هم لأشغالهم ومنها ري الأرض. اكتفى الفلاحون بوضع أختامهم أو بصماتهم على العريضة التي زعم العمدة أن البك كتبها دون أن يعرفوا محتواها. فقد أخبرهم العمدة "... أن محمود بك أعطاه عريضة جديدة وهي أحسن ألف مرة من العريضة القديمة التي مزقها. ومحمود بك يطلب توقيعات أهل القرية على هذه العريضة.. ثم ترسل بعد هذا إلى محمود بك ليجمع عليها توقيعات كل القرى التي يؤذيها نظام الري الجديد" [الأرض ٩٨]. وبالفعل تسابق الجميع في التوقيع على العريضة التي لم تكن سوى ورقة بيضاء وقع عليها أولاً الشيخ الشناوي الذي لا يملك في القرية إلا قبراً. ورغم الإشارة إلى أن نظام الري الجديد يؤذي قرى أخرى، إلا أن الرواية لم تشر أبداً إلى تلك القرى بشكل مباشر أو توضح مقاومتهم لها. وهذا التوقيع على بياض هو ما يذكرنا

بعريضة فونتمارا. تبدو العريضة غير متجذرة في الرواية، فبعد انفضاح أمرها ومعرفة الفلاحين أن محمود بك والعمدة خدعاها، لم يحاول الفلاحون فعل شيء ولم يعودوا إلى الحديث عنها سوى في المرة التي حكى فيها محمد أفندي مضمون العريضة لخاله الشيخ حسونة ثم لأهل القرية.

مع قدوم دور الري الجديد ومع عدم وصول أخبار عن العريضة، انشغل الفلاحون بري أرضهم التي ستعاني عطشاً كبيراً مع تخفيض زمن الري إلى النصف. وعند فجر اليوم الأول في الدور الجديد هرع الجميع للري دون التزام بالدور أو بالتنسيق معاً مما أدى لنشوب معركة حامية: ”وباسم الدفاع عن حياة الأرض... مضى كل فلاح يضرب ويضرب بلا توقف كل من يريد أن يناقش حق الأرض في الماء!.. كان الرجال يضربون بعضهم بلا حساب وبلا مراعاة.. وكأنهم لم يعرفوا بعضهم أبداً، ولم يحبوا بعضهم من قبل... كان من الممكن أن يصنع كل واحد بجسد أخيه أي شيء: أن يقذف به إلى أعماق الماء.. أن يقطع منه.. وحتى أن يأكله!“ [الأرض ١٥٧]. واستمر راوٍ لا نعرفه - غير الطفل الذي بدأ الحكى - يعرض تفاصيل المعركة ودور الرجال والنساء والأطفال فيها. ويمكن أن نرى في هذا الوصف براعة وتميزاً عن حديث رواة فونتمارا المقتضب عن النزاعات الدموية على الماء، فقد كانت الإشارات في هذا الخصوص سريعة وعابرة ودون وصف مشاهد مشابحة.

توقفت المعركة فجأة عندما أدرك المتعاركون أن جاموسة أحدهم سقطت في بئر الساقية بما يهدد حياتها، وحياتها ثروة لا يمكن تعويضها. هنا تذكر عبد الهادي أنه أسأل دم دياب، وتذكر غيره ما يمكن أن يكون بين الحاضرين من تأزر، فالتجها جميعاً إلى البئر ينقذون الجاموسة. تحول العراك إلى تعاون وتأزر، ”وأخيراً رفعت الجاموسة على أيدي الرجال.. ونزع عنها الغماء، فمدت رجلها إلى المدار وسحبها الواقفون.. ومدت رجلها الخلفيتين وتحركت ثم مشت على مدار الساقية والواقفون يسحبونها ويتحسسونها..“ [الأرض ١٥٩]. ومع خروج الجاموسة من البئر خرجت أزمة الماء من الرواية ولم تترك أثراً إلا القبض على الرجال بتهمة تحطيم الجسر، رغم موافقة شيخ البلد على هذا العمل حلاً للأزمة. لم يؤثر نقص الماء على الزرع بعد ذلك ولا عاد الفلاحون للعراك. بل إن الزرع كان جيداً وفيماً ينتظر الفلاحون بيعه ليحصلوا على بعض حاجتهم من المال. وكان عبد الهادي من بين الفلاحين ينتظر الحصاد لبيع المحصول ويدفع مهر وصيفة ليتزوجها.

كان ما تعرض له الرجال من سجن وتعذيب في المركز نهاية أزمة الماء، كما كان فرصة لانتقام الفلاحين ومعهم باقي أبناء الشعب من أعوان السلطة. وقد جمع سجن المركز عدداً كبيراً من المقبوض عليهم ”كانوا خليطاً من طلاب المدرسة الثانوية. ومدرسة

المعلمين الأولية ومدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الإقليم، وكان من بينهم بعض الطلبة الذين يدرسون في الجامعة بالقاهرة.. والذين صنعوا هناك المظاهرات طول الشتاء... وكان من بينهم بعض التجار وماسحوا الأحذية، والباعة المتجولون والمحامون، وعمال مصنع حليج القطن.. والذين يمشون في الطرقات بلا عمل ولا ذكريات ولا أحلام..“ [الأرض ٢٤١]. لقد جمع حزب الشعب كل أبناء الشعب في سجن واحد، فتحول إلى ندوة سياسية، ”ومن خلال أحاديثهم فهم عبد الهادي كثيرًا من الأسرار. فهم أن الإنجليز هم الذين يحكمون في مصر الآن. وأن هؤلاء الإنجليز والذين يستخدمونهم سيزولون تحت الضربات“ [الأرض ٢٤١]. ويذكرنا هذا الحديث عن فهم عبد الهادي للأحداث خلال وجوده في السجن بما حدث لبراردو فيولا عندما كان محبوسًا مع الراوي الصغير ورجل آخر لا يعرفه، تبين فيما بعد أنه الرجل الغامض. لكن الفارق أن وعي براردو فيولا أدى إلى فعل إيجابي وإلى دعوة للاتحاد والتمرد على السلطة التي تسرق الفقير باسم الفقير. في مقابل ذلك عرف عبد الهادي أن الأمل موجود دون أن يتوصل إلى حلول تحدد مسار المقاومة.

مع انتهاء الأزمة الأولى المتعلقة بالماء، برزت أزمة جديدة على السطح هي أزمة نزع الأرض نفسها من ملكية الفلاحين لصالح إنشاء مرافق عامة يعرف الفلاحون أنها لا تحدم إلا مصالح الباشا الكبير الذي لم يظهر بشخصه أبدًا في الرواية. اكتشف الفلاحون أن العمدة ومحمود بك خدعاهم بشأن العريضة وأوهماهم أنها من أجل إعادة نظام الري إلى الوضع القديم بينما كان الهدف من العريضة استغلال توقيعات الفلاحين لطلب إنشاء السكة الزراعية الجديدة التي لا يحتاجون إليها. وقد كان البعض يشكون في أمر العريضة قبل أن يعرفوا محتواها. فهذا الشيخ يوسف قلق مما فيها: ”...طيب لما نشوف آخره العريضة دي يا بلد! هو حد عارف العريضة فيها ايه؟ حد عارف مختمين البلد على ايه؟ يمكن مختمينها على كمبيالة؟ حد كان قرا العريضة؟ ما يمكن تكون مغرز وتعمل في البلد! اه يا بلد!“ [الأرض ١٢٥]. لكن ما كان الشيخ يوسف ولا غيره يتصور حقيقة العريضة حتى عاد محمد أفندي من القاهرة ليخبرهم بمضمونها: ”وعاد إلى محمد أفندي وجله فطلب من محمود بك أن يقرأ له العريضة لأن أهل بلده استحلّفوه أن يقرأها قبل أن تُقدم إلى الحكومة، وقرأ محمود بك العريضة بإهمال وثبات... فوجدها محمد أفندي التماسًا بشق طريق زراعي..“ [الأرض ١٧٦]. شعر محمد أفندي بالصدمة فبحث عن خاله الشيخ حسونة الذي يسكن في القاهرة ليخبره بما عرف ثم عاد مسرعًا إلى القرية ليخبر أهلها بما عرف. لم يفكر الفلاحون هذه المرة في مخاطبة الحكومة أو إنكار طلبهم، وإنما بدأوا يفكرون في المقاومة من خلال مواجهة أعوان السلطة المقيمين بينهم أو القادمين من المركز من أجل شق الطريق الجديد. وهنا يظهر شعبان المجذوب

الذي يظهر أولاً عند حضور رجال المساحة إلى دوار العمدة.
يمثل شعبان شخصية من تستغلهم السلطة ضد المواطنين للتلاعب بعقولهم، فهو يبدأ معارضاً للقرارات ثم ينتهي متزعماً لها. ظهر شعبان لأول مرة عندما حضر ثلاثة من موظفي المساحة إلى دوار العمدة لوضع العلامات لتحديد الأرض التي سيتم نزعها من أصحابها من أجل السكة الجديدة، فقام شعبان بضربهم وإهانتهم ففروا هارين. انتشر الخبر بين أهل القرية فضحك الجميع إلا الشيخ حسونة الذي قال: ”كلكم مبسوطين من الملعوب ده.. لكن أنا مش مبسوط! يعني العملة اللي عملها الواد شعبان عاجباكم كلكم، ولكن ما قولكم بقى إنها مش عاجباني؟ وبكره تشوفوا كلامي... وخيم على الجميع وجوم .. وحذر، وقلق..“ [الأرض ٢٧٠]. انطلق شعبان بعد ذلك مستفيداً من سمعته التي اكتسبها بضرب موظفي المساحة ليقوم ببعض الحيل التي يثير بها الفتنة بين المتحدين في وجه الحكومة وليوغر صدور بعضهم ضد البعض الآخر. كما أصبح بمقدوره أن يعرف كل كبيرة وصغيرة من خطط أهل القرية ونواياهم، ثم أخذ يقنع العمال العائدين من المصانع المتوقفة عن العمل بفائدة الزراعة في توفير فرص عمل لهم. استطاع محمد أبو سويلم أن يكشف أمر شعبان بوضوح ويفضحه أمام الآخرين قبل أن يفسد ما بينهم. وقف أبو سويلم يرد على الشيخ حسونة الذي ظن أن محمد أبو سويلم أساء إليه في غيابه فقال الأخير: ”بقى أنا يا فلاح أفهم الدور وانت اللي اسمك متعلم متنور لسه ما عرفتش؟ ... بقى يدخل عقلك الكلام ده يا حضرة الناظر؟ يا سنة مهبية يا ولاد!! ... هو كلام شعبان خال عليك، وفتحت له صدرك؟! ...“ [الأرض ٢٨٦].
شرح أبو سويلم للشيخ حسونة كل شيء ثم تصالح الجميع بعد أن فهموا أن شعبان هو من أثار كل ما بينهم من مشاكل.

رأي الجميع شعبان يجمع العمال العاطلين حوله ويمنيهم بالعمل والرزق، كما رأوه قائماً يحرس حديد السكة التي ستقضي على أرضهم في حوض الترعة فدبروا خطة للتخلص من الحديد ومنه: ”فوجئ شعبان بالرجال ولم يفلح في انتزاع بندقيته ... غير أن عبد الهادي انقض عليه وسد فمه، ثم رفعه، وحمله على ظهره - كغمر الذرة - تماماً“ [الأرض ٢٩٤] وألقاه عبد الهادي في الترعة بينما قام باقي الرجال بإلقاء الحديد معه للتخلص منهما. وهنا نرى مشهداً نابضاً بالحركة والفعل يختلف عن اكتفاء رواية فونتمارا بإخبارنا أنهم سرقوا الحديد أكثر من مرة أثناء شق مسار جديدة للترعة.

انشغل بعض رجال القرية بالتفكير في أمر العمدة الجديد الذي لا يعرفون من هو بعد، ”أما بقية القرية فقد كانت تفكر في موقف الحكومة بعد أن رمت القرية حديد الزراعة، وفيما يمكن أن يصنعه المأمور بعد أن أنذر القرية في مآتم العمدة... وفي الطريق من الجبانة إلى القرية قال شيخ البلد للعائدين معه أن المأمور أرسل إشارة تليفونية ...

يخبره بأن الهجانة مقبلون إلى القرية، وأن التجول ممنوع بعد أذان المغرب...“ [الأرض ٣٠٧ - ٣٠٨].

نزل الهجانة إلى القرية مساءً فضربوا كل من قابلوهم في الطريق بمن فيهم شيخ البلد نفسه، وفرضوا سيطرتهم على القرية وزرعوا الرعب في نفوس أهلها إضافة إلى المهانة. أثار الهجانة كل المشاعر المحبطة في النفوس من أول ليلة، ولكنهم تركوا للفلاحين مادة للسخرية من شيخ البلد الذي ضربه قائد الهجانة، وكذلك ما فعلوه بالشيخ الشناوي عندما منعه من الخروج من داره لصلاة العشاء. ونتيجة لهذا، أرسلت الحكومة حديدًا بديلاً مما أدى إلى تهشيم عيدان القطن في الحقول التي نضجت ثمارها. في اليوم التالي "وقبل الأصيل كان الفلاحون يعودون إلى دورهم مسرعين يسوقون البهائم من حوض الجسر وحوض الترعة، ومن وراء البهائم فتيات حافيات... وعندما مر العائدون من الحقول بالمكان الذي ستشقق فيه السكة الزراعية رأوا الحديد الجديد قد هشم مزيدًا من الأعواد الخضراء وقد انحدرت على تراب الأرض قطع كثيرة من القطن الأبيض... وفي كل صدر يتردد سؤال حائر حزين.. ما العمل..“ [الأرض ٣١٢]. هذا السؤال هو نفسه الذي اختتم به الرواة حكايتهم في فونتمارا. لكنه هنا جاء عابراً في منتصف الحكاية وترك مكانه الحاسم في ذهن القراء لصالح كلام عم كساب الذي يتحدث عن ضرورة ألا يستسلم المهزوم وأن يفكر في بداية جديدة. فعم كساب يخبر الراوي "... أنه قرر أن يشتري أرضاً على الزراعية من بقايا الأرض التي نزعت ملكيتها. فيبني عليها داراً جديدة.. فإذا أخذ محمد أبو سويلم التعويض عن أرضه التي نزعت شاركه عم كساب في بناء ماكنة طحين تكسب تماماً، وتمنح لمحمد أبو سويلم من المال والحياة المفورة أكثر مما كانت تمنحه الأرض“ [الأرض ٣٨٥]. وكأن نزع الملكية كان فعلاً في صالح محمد أبو سويلم كما كان في صالح بعض العمال العاطلين الذين عملوا في بناء الزراعية الجديدة، وكما رأي أخو الراوي أن الزراعية الجديدة ستسمح بمرور أتوبيسات لنقل التلاميذ إلى المدارس البعيدة فينتشر التعليم.

لم يكن محمد أبو سويلم قد توصل لهذا وهو يحاول أن ينقذ أرضه أو حتى أن ينقذ محصول العام حتى لا يضيع، ولم يكن الفلاحون الآخرون قد توصلوا لهذا الفهم عندما ساعدوا الرجل على جني ثمار زرعه، مما أدى إلى القبض عليهم وحبسهم من جديد. كانوا دائماً ما يفكرون في المقاومة فتقلب الأمور عليهم. هذا ما فهمه الشيخ يوسف الذي بقي متشككاً في كثير من الأمور مما جعله منعزلاً عن الآخرين في تمرداتهم. فهو يقول لعلواني بعد أن تكرر التمرد على الحكومة وتكرر التنكيل بأهل القرية: "آدي آخره العمائل السوداء.. آدي آخره مناكفتنا ويا الحكومة !! أهى النقطة جاية أهة... آدي آخره شهامة العرب وهباب العرب..." [الأرض ٣٣٢] تشكك الشيخ يوسف

في جدوى العريضة من قبل وفي مضمونها، وها هو ناظم على نتائج التمرد المتكرر. ولكنه اتخذ لنفسه سبيلاً آخر: إنه طامع في تولي منصب العمدة ليكون مع السلطة وليس ضدها، كما أنه راضٍ بنزع ملكية أرضه في حوض التربة الذي لم يكن قادراً على استرداده من محمد أفندي بعد تراكم الديون عليه. إنه يفكر في خلاصه الفردي. لهذا لم ير الشيخ بأساً في التخلي عن الموقف الموحد لأهل القرية من عمال الزراعية ومقاطعتهم: قرر هو أن يبيع لهم لأنهم من يملكون المال الذي يحتاج إليه في دكانه، حتى لو أدى هذا إلى كيل الاتهامات له من عبد الهادي: ”كده على طول بين يوم وليلة غيرت رأيك؟! كدهه القرش قلب محك.. أمال قرئت في الأزهر ايه ونيلت ايه؟! يا أخي افكر مشايخ زمان اللي قرئت عنهم، كانوا بيعملوا ايه مع الحكومة...“ [الأرض ٣٤٨]. ظل عبد الهادي يذكره بالمقاومة أيام عرابي وأيام ثورة ١٩١٩، لكن الشيخ يوسف كان ناقماً على كل هذا لأنه لم ير له نتائج تستحق التمسك بهذا النهج.

في مقابل بحث الشيخ يوسف عن خلاصه الفردي، كان الباقون طامحين إلى مجرد الإفراج عن رجالهم المحبوسين للمرة الثانية بعد أن حاولوا مساعدة أبو سويلم في جني محصوله قبل أن يدمره عمال الزراعية. كان الرجال محبوسين في حجرة التليفون في دوار العمدة لكنهم سيخرجون بعد أن أرسل محمد أفندي بركات إلى الحكومة وإلى صحف المعارضة للإفراج عنهم. يحكي عم كساب للراوي الصغير: ”إن الدنيا كلها مقلوبة في المديرية من أجل الرجال المحبوسين. فالبرقية التي أرسلتها البلد إلى مصر هزت الحكومة هناك، والكتاب الذين تضطهدهم الحكومة هاجموا في - صحف المساء - لأنها تقبض على الناس وتسجنهم بلا تحقيق وبلا جريمة!“ [الأرض ٣٧٧]. وهذا أمر عجيب، لأن البرقية هذه المرة حققت هدفها في سرعة كبيرة رغم أن ما حدث هذه المرة كان أقل كثيراً من المرة الأولى التي سُجن فيها الرجال في سجن المركز وذاقوا ألوان العذاب.

من المهم أن نلاحظ أن رجال الهجانة هنا يشبهون رجال المليشيا الذين نزلوا فونتمارا وعاثوا فيها فساداً، مع فروق واضحة، يتصل أولها بالمدة الزمنية التي قضاها رجال الهجانة في القرية؛ فقد بقوا في القرية مدة حتى تبدلت مواقفهم وصاروا أصدقاء لأهل القرية يسهرون معهم، كما أن الشاويش عبد الله تحول في النهاية لينهل على المأمور ضرباً بعد أن صار صديقاً لأهل القرية. والفارق المهم هو أن رجال المليشيا كانوا بلا شرف، وأعداء للفقراء، بينما كان رجال الهجانة من أصول طيبة ولهم أهل يحبونهم ويتمنون العودة إليهم، ولهم ضمائر تؤلمهم لما فعلوا بأهل القرية: ”وتتم الشاويش عبد الله بكلمات خافتة لم يكذب يسمعه أحد.. كلمات تبين منها ضيقه الحزين لبعده عن أمه وأبيه، وحنقه لأنهم جاءوا به إلى هنا ليدل قرية لم يعرفها أبداً من قبل، وليس بينه وبين أهلها عداة!“ [الأرض ٣٢٧]. فالهجانة وشاويش النقطة الذي جاء بعده وضرب الرجال

وقبض عليهم، كلاهما غير راضٍ عن نفسه ولا عن أفعاله ولا طاعته لحكومة ظالمة. من هنا كانت نهاية الرواية بردًا وسلامًا على القرية وأهلها، فقد خرج المحبوسون من السجن وعاد الراوي الصغير إلى مدرسته في القاهرة تاركًا بيت أهله في الريف، وعم كساب يخطط لحياة جديدة مليئة بالأمل لأن الرجل يجب دوماً أن يقف من جديد ولا يترك شيئاً يهزمه، وأصبح أطفال القرى قادرين على استخدام الزراعة الجديدة للوصول إلى مدارسهم البعيدة بالأتوبيسات، وتخلص الشيخ يوسف من ديونه وحصل على تعويض عن أرضه مثلما سيحصل أبو سويلم على تعويض يدخل به في شراكة مع عم كساب. أما الشيء الوحيد الذي بقي معلقًا عند النهاية فهو مصير وصيفة: هل حقًا ستتزوج عم كساب أم سيكون لها فرصة مع محمد أفندي الذي اتضح أكثر من مرة مقدار تعلقها به؟ وما مصير حب عبد الهادي لها وخطبتها مرارًا حتى في الحبس؟

٩ خاتمة:

كان عباس التونسي أول من وثق فرضية تأثير رواية **فونتمارا** على رواية **الأرض**، وكان أول من حاول إثباتها بشكل مكتوب. ويبدو أننا نتفق مع ما افترضه وما توصل إليه، ولا نستطيع أن نضيف جديدًا إلى ما قاله فيما يتعلق بالأدلة التاريخية. ومع ترجيحنا أن يكون لرواية **فونتمارا** تأثير على رواية **الأرض**، وتصورنا أن ذلك تم عبر الترجمة الأولى **لفونتمارا** التي قام بها مصطفى كامل منيب، إلا أننا نود تأكيد أمرين: الأول أنه من المحتمل أن يكون الشرقاوي قد اتطلع على الترجمة العربية، ولكن ليس من المستبعد - في ذات الوقت - أن يكون قد عرف بالرواية وقرأها بلغة غير العربية. نحن لا نعرف أنه كان يقرأ بالإيطالية، لكنه قارئ جيد بالفرنسية. كما أننا الرواية كانت ذائعة الصيت في أوساط اليسار في العالم كله تقريبًا. وكانت معروفة حتى في الاتحاد السوفييتي، رغم موقف مؤلفها من ستالين وخلافه العلني معه في مؤتمر شيوعي في موسكو. أما الأمر الثاني، فإنه إذا صحت الصلة بين العملين فإن هذا لا يعطي أحدهما ميزة على الآخر فلا يثبت تفوق الرواية الإيطالية ولا يقلل من قيمة رواية **الأرض** في شيء لأنها لم تكن مجرد صددى **لفونتمارا**، وإنما استطاعت بحق أن تقدم عالم القرية بكثير من الواقعية والتجسيد والتخلي عن استخدام اللغة الجوفاء إلا في حالات قليلة نتيجة موقفها السياسي من حزب الشعب.

جاءت الأرض في سياق التعليق على مرحلة تاريخية انتهت، وكان المؤلف وجيله يأملون في بداية عهد جديد بعد ١٩٥٢. وبالتالي كانت **الأرض** نوعًا من المحاكمة لنظام سابق وليست إبرازًا لمعاناة الريف عمومًا من ظلم حكومات متعاقبة. أما **فونتمارا** فكانت في مرحلة تبدأ فيها إيطاليا معاناة ديكتاتورية متصاعدة في نهاية العشرينيات

وبداية الثلاثينيات، واستمرت المعاناة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. قد يفسر هذا الفارق أمرين: الفروق بين التركيز على حكومة واحدة في الأرض مقابل تعميم السلطة في فونتمارا؛ كما يفسر الفارق الكبير بين نهايتي الروايتين.

كان مسرح الأحداث الرئيس في العملين في الريف، وكانت المشاهد في المدينة استثنائية. لكن علاقة الريف بالمدينة تختلف كثيرًا بين الروايتين: فالمدينة في فونتمارا ساخرة من القرية والفلاحين، وظالمة لهم، وقاسية عليهم، كما أن الرزق في المدينة كبير ودون جهد ودون إنجاز. أما الحصول على الرزق في القرية فكان صعبًا ومجهدًا وكان الرزق شحيحًا. بينما نرى المدينة في الأرض لا تختلف عن القرية، فسوء الحال يعم القطر بريفه ومدنه، والسخط والغضب والاحتجاج في المدينة كما في الريف. وكانت المدينة لسكان القرية مطمحًا يبعون الوصول إليها والإقامة فيها والتمتع بخيراتها، وتبدو قيمتها أبعد من مجرد الحصول على الرزق لأنها تمثل قيمة في حد ذاتها. كان التسلط من الحكومة وأعوانها دون غيرهم، ولا سخرية تقريبًا إلا مرة واحدة وربما كانت بتأثير من فونتمارا. وكانت الأماكن التي يتجمع فيها الفلاحون هي طرقات القريتين لكن التجمع في فونتمارا كان أمام حانة فيما كان التجمع في الأرض أمام دكان بقالة.

أخذت الروايتان من الصيف إطارًا زمنيًا لهما، وكان صيف أحد الأعوام في نهاية العشرينيات تقريبًا هو زمن فونتمارا فيما كان صيف أحد أعوام بداية الثلاثينيات في الأرض. وكانت إشارات الروايتين إلى الزمن الخارجي واضحة. مرت فونتمارا خلال الصيف بأزمة واحدة هي أزمة انتزاع الماء من الفلاحين لصالح المقاول، بينما مرت الأرض بأزمة مشابهة استمرت حتى منتصف الرواية ثم انتهت دون حل ودون التسبب في مشكلة حقيقية وتركت مكانها للأزمة الثانية وهي أزمة انتزاع الأرض من الفلاحين وتبويرها لصالح خدمات للبasha صاحب النفوذ.

بدأت العاطفة الدينية في فونتمارا أقوى منها في الأرض مع رغبة السكان في الحصول على خدمة دينية في كنيستهم بينما انصرف أهل القرية في الأرض عن الصلاة مع دعوات الشيخ الشناوي لهم وتأكيدهم أهمية الصلاة لتجنب العذاب ولطلب الرزق. بدأ فلاحو الأرض أكثر رغبة في الاعتماد على سواعدهم وعلى عقولهم، وأقل اعتمادًا على معتقداتهم.

لعب رجال الشرطة والمليشيا والهجانة أدوارًا متشابهة في الروايتين. لكن الأرض استطاعت أن تفرد لهم مساحة أكبر تبرز جوانب من شخصيتهم مرت سريعًا وبقدر كبير من التعميم في فونتمارا. رأينا كيف يندم الصول وكيف يأسف الشاويش عبد الله، بل ويتمرد ويضرب المأمور، وعرفنا كيف يشعر كل منهما بوخز الضمير نتيجة ما فعلاه بأهل القرية. وهذا ما لم نره في فونتمارا.

يمكن أن نرى في شعبان تشابهاً مع بطل بورتابيا واستغلال السلطة لكل منهما لإيهام الجماهير بأشياء غير حقيقية وإكسابهما بطولات وهمية للتلاعب بعقول المواطنين. لكن بطل بورتابيا هو من كشف نفسه وكشف السلطة لأهل فونتمارا، أما شعبان فقد كشفه أبو سويلم سريعاً وقبل أن ينجح في خطته. وربما يرجع الاختلاف إلى ارتباط نشاط بطل بورتابيا بالمدينة خلال عمله لصالح السلطة، بينما كان توظيف شعبان في القرية ذاتها.

يمكن أن نرى أن شخصية عبد الهادي هي الأقرب إلى شخصية براردو فيولا. فعبد الهادي يشبه فيولا في الصفات الجسمانية وفي القوة والروح المتمردة. لكن الفرق بينهما راجع إلى تمسك عبد الهادي بأرضه في مقابل براردو فيولا الذي باع أرضه من أجل حلم السفر والهجرة. كما أن مصير كل منهما مختلف: فقد مات فيولا دفاعاً عن الرجل الغامض بعد أن علم بفقد حبيبته، أما عبد الهادي فقد خرج سالماً بعد تجربتي حبس، ولا نعرف مصير حبه.

يمكن أن نرصد تشابهاً حتى بين مشاهد صغيرة مثل ممارسة أنطونيو زايا وأصحابه الجنس مع الماعز في فونتمارا في مقابل ممارسة دياب للجنس مع الجحشة في الأرض. كما يمكن أن نتذكر استخدام الدراجات من قبل رجال السلطة دون غيرهم، أما الباقون فغالباً ما يمشون وقليلًا ما يركبون الدواب في الروايتين.

وإذا كانت فونتمارا قد أقامت تعارضاً بين اللغة الرسمية والم لغة والمرأغة في مقابل اللغة المحلية البسيطة المباشرة، فإن الأرض أقامت تعارضاً بين لغة القرية العامية الواقعية وبين لغة الكتابات الرومانسية عن القرية.

وتبقى مسألة الرواة هي الأكثر بروزاً واختلافاً في العملين. ففونتمارا يرويها أربعة رواة مختلفون، لكل منهم صوته. ورغم تعدد الرواة إلا أن التركيز على الأزمة الأساسية بقي واحداً. أما الأرض فيرويها راوٍ واحد يبدأ ثم يختفي ثم يعود بعد أن ترك مساحته لراوٍ ثانٍ لا نعرفه. لكنه في النهاية تنقل بنا بين أزمتين وموضوعات أخرى جانبية كثيرة. وإذا كان الرواة في فونتمارا قد تركونا أمام سؤال كبير هام وحاسم: ما الذي نفعله؟ فإن راوي الأرض أنهى كل شيء بسلام ووصل بنا إلى نقطة نهاية واضحة، وبقي أن يختم لنا الحدودة بالعبارة المأثورة: "وعاشوا في تبات ونبات، وخلفوا صبيان وبنات". لكننا لا نعرف مع من عاشت وصيفة. هذا هو السؤال الذي تركنا الراوي نفكر فيه.

[مصادر البحث ومراجعته]

أولاً: المصادر والمراجع العربية:
إدوار الخراط: شهر العسل المر وقصص إيطالية مختارة: كتب ثقافية — مترجمة من الشرق

والغرب (القاهرة، ١٩٥٩).
 إنياتسيو سيلوني: فونتمارا، ترجمة كامل صليب، مراجعة حسن محمود، سلسلة الألف كتاب، العدد ٥٩٣ (القاهرة، مكتبة يوليو، ١٩٦٧).
 أنياتسيو سيلونه: فونتمارا، ترجمة عيسى الناعوري (بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٣).
 إيجنازيو سيلوني: فونتمارا، ترجمة مصطفى كامل منيب (القاهرة، دار النشر، ١٩٤١).
 ثريا العسيلي: أدب عبد الرحمن الشرقاوي، سلسلة دراسات أدبية (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥).
 سيد عبد الله علي: أرض الشرقاوي - محتوى الشكل والواقعية المأزومة (القاهرة، مجلة أدب ونقد، عدد ١٠٤، إبريل، ١٩٩٤).
 عباس أحمد لبيب (عباس التونسي): بين الأرض وفونتمارا (القاهرة، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس، ١٩٨٢).
 عبد الرحمن الشرقاوي: الأرض (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، د.ت).
 عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم: في الثقافة المصرية. الطبعة الثالثة (القاهرة، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٩).
 عبد المحسن بدر: الروائي والأرض. الطبعة الثانية (القاهرة دار المعارف، د.ت).
 عيسى الناعوري: رحلة إلى إيطاليا ١٩٦٠ - ١٩٦١. حررها وقدم لها تيسير نجار (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت).

ثانياً المراجع الأجنبية:

Carlo Minnaja, *L'esperanto in Italia. Alla ricerca della democrazia linguistica* (Il Poligrafo, 2007).
 Dario Biocca - Mauro Canali, *L'informatore: Silone, i comunisti e la polizia* (Luni Editrice, Milano, Trento, 2000).
The Guardian, Wednesday 5 April 2000.
 Samah Selim: *The Novel and the Rular Imaginary in Egypt 1880-1985* (New York and London. Routledge Curzon, 2004).
 Silone, Ignazio. *Fontamara. Roman* (Zurich: Oprecht & Hebling, 1933).
 Silone, Ignazio, *Fontamara* (Penguin Books Ltd., 1934).